CRITICAL CASES

# حالات حرجة

## من يومياتي في الثورة السورية

٢٠١١ - ٢٠١٩

هادي العبد الله

تحرير جود

# حالات حرجة

# حالات حرجة

## من يومياتي في الثورة السورية ٢٠١١ ـ ٢٠١٩

هادي العبد الله

تحرير

جود

جسور للترجمة والنشر

**الفهرسة أثناء النشر ـ إعداد جسور للترجمة والنشر**

حالات حرجة: من يومياتي في الثورة السورية ٢٠١١ ـ ٢٠١٩/ هادي العبد الله؛ تحرير جود.

١٩٢ص.

ISBN 978-614-431-770-9

١. سوريا ـ تاريخ ـ ثورة ٢٠١١.

320.95691

«الآراء التي يتضمنها هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن وجهة نظر جسور للترجمة والنشر»

حقوق الطبع والنشر محفوظة لجسور

الطبعة الأولى، بيروت، ٢٠٢٠

**جسور للترجمة والنشر**

**لبنان ـ بيروت**

josour.pub@gmail.com

# المحتويات


مقدمة المحرر ..... ٧
مقدمة ..... ٩
تمهيد ..... ١١
قبل البداية ..... ١٣
أبواب الحرية تُقرع ..... ١٧
يوم الغضب ..... ٢١
النظرة الأولى ..... ٢٩
القناع ..... ٣٣
صوتي الجديد ..... ٣٥
على ناصية الحلم ..... ٣٧
الحيُّ الميْت ..... ٣٩
دَيْنُ العاصي ..... ٤٣
الولادة ..... ٤٥
أنتما مثقفان! ..... ٤٩
صراعُ النفس ..... ٥٥
الاعتراف ..... ٥٧
المواجهة ..... ٥٩
في الجنة، تحت النار ..... ٦٣
في أحشاء المنزل ..... ٦٩
غريب في ديارنا ..... ٧١
الناجي الوحيد ..... ٧٥

الخروج من الجنة ..... ٧٩
هدنة ..... ٨٩
استئناف ..... ٩١
طريق الدماء ..... ٩٥
عيني تؤلمني ..... ١٠٣
رحلةُ الشوق ..... ١٠٩
فجرٌ في كفرنبل ..... ١١٣
كابوس طويل ..... ١١٩
يا كافر ..... ١٢٥
في سجن «الثوار» ..... ١٢٧
مُصادَر: ممنوع الاقتراب ..... ١٣١
هادي شهيداً ..... ١٣٥
#حلب_تحترق ..... ١٣٧
العهد المكلف ..... ١٤١
تحت الأنقاض ..... ١٤٥
عيني الأخرى ..... ١٥١
طريق الآلام ..... ١٥٥
شهيد بلا استئذان ..... ١٥٩
لقاء الشهيد ..... ١٦١
رحلة العلاج وداء البعد ..... ١٦٥
بلا أيدٍ ..... ١٦٩
تجديد العهد ..... ١٧١
فكرة مجنونة ..... ١٧٣
حالة... غير حرجة! ..... ١٧٥
سهمان في القلب ..... ١٧٩
سأعود ..... ١٨٣
رهاب الفقد ..... ١٨٥
فصلٌ جديد ..... ١٨٧

# مقدمة المحرر

هذا الكتاب تقدمةٌ مني للثورة، ولمحمد وزينة، وذلك أقل ما أستطيع.

أنوّه إلى أن ما بين أيديكم هو مقتطفات من سيرة ذاتية، مروية عن لسان هادي العبد الله نفسه من دون الرجوع إلى أي طرف آخر، وقد استغرقت أربع سنوات بين الرواية والتحرير. من ثَمّ، فإنها لا تخضع لهيكلية بناء الرواية أو أصول التوثيق. ولا تشمل صفحات هذا الكتاب كل الأحداث المهمة التي انضوت عليها أوراق الثورة، بل ما استجمعته ذاكرة الراوي وما يخصّه من ذكريات فقط، ولذا، فإنها لا تهدر أهمية أي معركة ولا دور أي فصيل، ولا كرامة أي شهيد. كما أن ما ورد في الكتاب رأي الراوي الشخصي، من وجهة نظره وخبرته في العمل الصحفي.

ملاحظة: *كل ما كُتب بخط مائل هو نقل حرفيّ عن لسان الراوي، وما عدا ذلك متصرف به بما يتناسب مع أصول السرد.*

**جود**

**في ٩ آب/ أغسطس ٢٠١٩**

# مقدمة

*في خضم الأحداث التي لا تريد أن تنتهي قبل أن تستنزفنا، ومع جبال القهر والألم التي يحملها أبناء بلدي على ظهورهم، وبحور الهمّ والحزن التي تغرقهم كلّما أوغلوا في دروس الحياة، حدّثني جود عن رغبته في تدوين ما عايشته منذ بداية الثورة حتى يحفظ الصّورة بالكلمات كما أحاول حفظها بآلة التصوير. ولنكن أدق، كتابة المذكرات التي لم يكن لها نصيب على وسائل التواصل الاجتماعي، بخلاف الأخبار الميدانية التي تعج بها حساباتي الشخصية.*

*تعللت بادئ الأمر بصعوبة ما يطلب، أو ربما استحالته لكثافة الأحداث وكثرتها وتعقيداتها، فقال: نحفظ مقتطفات مما لم يتفلّت من ذاكرتك المنهكة! قلتُ: هناك الكثير الكثير ممن عانوا أضعاف معاناتي وعاينوا صنوفاً من العذاب أشد من عذاباتي... قال: أنت صوتٌ وما حكايتك إلا شقيقة صغرى لحكاياتهم، ولِكُلٍّ الحق في أن يُحفظ. اعتبرها محاولة لحِفظِ الحقائق من مشوهيها، كي لا تزيد على الضحايا ظلمَ نعتِهم بالظلم حين تغيب أصواتهم.*

*الحلّ الوحيد هو أن نكتب... وهذا ما كان.*

**هادي**

# تمهيد

تخرّج الشّابّ أخيراً، وأصبح على مفترق طرقٍ من جديد. لكنّه كان يعرف وُجهته التالية فلا خوف من المستقبل... كان قد صمّم من قبلُ، حيث لم يُقدّر له أن يدرس الطّبّ اختصاصاً، أن يستكمل دراساته العليا في التمريض. وبالتحديد، تخصّص «حالات حرجة». لكنّ ما حصل كان غير المُتوقّع، فقد تحوّلت حياتُه إلى ورقة شجر حبيسة زوبعة الحرب التي عصفت بالوطن، ودخَل لحظة ولادة الثورة بكُلّ كيانه إلى غرفة العمليّات مباشرة، لينقل الواقع من غير تشويه أو تزييف. أمّا المفارقة فكانت أنّ كلّ الحالات بعد ذلك أضحت حرِجة!

# قبل البداية

نقول الحياة لا تختصر بكلمات. لكنّها تُختصر، والكلمة فيها ما فيها من لوعةٍ واختزالٍ. أن تطوي المعاني والآلام والاضطرابات ونوبات الهلع بمجرّد نزعةٍ كتابيّة. أن تحفظ في سطر أو اثنين سيرةً من الزوال. تقول، حتى لا يضيع شيء. لكنّك موقنٌ أنّ البوْح لن يطال كل زوايا الذاكرة. هناك أشياء نتناساها، وأخرى نريد لها أن تبقى دفينة كي لا تفتح جراحاً، وأخرى نتمنّى لو أنّها تذهب، هكذا، من تلقاء نفسها، كأنّها لم تكن.

* * *

من أين أبدأ؟ أو من أين تبدأ الحكاية. هذا إن كانت حكاية واحدة. أحياناً يكونُ العُمرُ رتيباً وكأنّه يقول لك: اختصرني بشبه جملة، وأحياناً أخرى يكون مكتظّاً حتّى لتكاد الكلمات تنتهي في سرده ولا ينتهي. سأقول لك، هناك نقطة أملٍ أخيرة سآتي عليها في سياق الحديث... ربّما كانت هي سبب صمودي حتى الآن، ولكنني حين آوي إلى سريري قبيل الفجر بقليل أفكّر مليّاً وأُعيد على نفسي ما حدث، فأُدْرك أنّ قطرات الماء الأخيرة في جرّة العطشان هي الأقْدر على فجعه. لذلك أعيش الآن على الخوف من الفقْد. أناجي الله في جوف الليل كأنّني أهذي، يكفي أن تنطفئ

عيناي بالفراق مرّتين، لا تُطفئ يا الله بالفقْد، بعدُ، قلبي.

تقول: الحكايةَ بالتفصيل. وأنا سأجيبك، ما دام في قلبي نبض وفي رئتاي نَفَس. لكن إن لم أكمِل الحكاية فلا تعتب... فالحرب مهما قدّمت وعوداً للبلاد تبقى مُستَعمِرة. وأنا لستُ سوى خيالٍ يتهادى في الوطن تحت وطأة القصف. أما بخصوص التفاصيل، فسأحكي ما لم يُفلِت من ذاكرتي بعد أن تلقّى مَعْقِلُها ما يكفي من الضربات حتى غاب كثير منها عن بالي.

قد يبدو غريباً لك أنّني كنتُ مُمَرّضاً قبلَ هذا كُلّه. حينَ يعودُ المرء بالشريط إلى الوراء لا يَسَعُهُ إلا أن يقف ذاهلاً. كيف جرى كل شيء كما لو أنّه ماءٌ يتدفّق في مجرى النّهر؟ نحن دائماً نطمح إلى الوصول إلى البحر، لكنّنا عندما نصِلُ نُدرِك كم نحنُ صِغار؛ بنجاحاتنا وإخفاقاتنا، بأفراحنا وأتراحنا، بما استطعنا الحفاظ عليه وبما أفلتَ من بين أصابعنا كالماء يتفلّتُ من الاحتواء. بكلّ الفواجع التي نرى ونسمع ونعيش. في البحر هناك دائماً أكثرُ ممّا فعلته، ومما ستفعله. وهناك قعر غائرٌ، وسماءٌ بعيدة، ولا خطّ سير إلى الوراء. كأنّه الحياة.

لطالما كان المعدّل التّراكميّ في الامتحان النهائي للمرحلة التوجيهية الحائل الأوّل بين طموحات بني بلادي وبين الواقع، وفي القصص النموذجية الشائعة غالباً ما يكون الأبطال على درجة فريدة من العبقرية، أو ذوي معدّل مُسرفٍ في الانحدار. ولكنني لستُ أنتمي إلى أيٍّ من المستويين. كنتُ طالباً بمعدّلٍ تراكميّ لا يسمح له بدخول تخصص الطّبّ، ولكن عقله وقلبه مليئان بحبّ تقديم العوْن للناس، فما بالك بإنقاذ الأنفس؟ وبعد الإمعان والتفكير، لم أجِد لنفسي خياراً أفضل من اختصاص التّمريض.

لم أتطلّع كثيراً إلى المستقبل، لكنّني كنتُ أشعر أنني في المسار الصحيح. ذاهبٌ إلى حيثُ أستطيع أن أُعطيَ، وأكون على مَقرُبة من المُتَأَوِّهين؛ أربّت على أكتافهم وأهدئ روعَ جراحهم حتى تستكين. كانت للتمريض في مخيّلتي صورةٌ ناصعةٌ، الرسالة الملائكية التي تتجلّى فيها أسمى آيات الرّحمة، ولم يمرَّ في بالي أبداً أنّ الوطن كُلّه سيُصبِح في غضون سنواتٍ قاحلاً من أدنى مستويات هذه المعاني.

درستُ التمريض، وكنتُ متفوّقاً بفضل الله، الأمر الذي سهّلَ لي الاستفادة من بعثة تدريبية إلى مصر في سنتي الجامعية الثالثة. وبينما كنتُ أتدرّج في سِنِيَّ الجامعية نحو التّخرّج، بدأتُ أفكّر باستكمال مسيرتي العلمية وخوض غمار الدراسات العليا، تحديداً في تخصص الحالات الحرِجة. كنتُ أُمَنّي نفسي بأن أُصبح مُعيداً في الجامعة، وربّما أصِل يوماً إلى أن أُمسك بيدي شهادة الدكتوراه، وأقبِض في صدري على مفتاحٍ يُمكّنني من إيصال رسالتي إلى أكبر عدد ممكن من النّاس. لمْ أجِدْ أسمى من إسعاف المرضى والمُصابين إلا المساهمة في إعداد كوادِر المُسعفين والمُمَرِّضين. ويوماً بعد يوم، شَرَعَ الحُلمُ يتحوّل إلى حقيقة إذ جيء بطلب تدريسي في «حماه» في كُلية التمريض التابعة لـ «جامعة البعث» الموجودة أساساً في «حمص».

في تلك الأثناء، كان فتيل الثورات العربية يشتعل، وكنّا نستبعد أن يَصِلَ لهيبه إلى قنبُلتنا. وفي نقاشاتنا المكتومة كنّا نتساءل جميعاً إن كانت مصر وليبيا وتونس أمثلة يُمكن إسقاطها على الواقع السوري. حين كان يصل الدور إلَيَّ للإجابة كنتُ أتخبّط بين الرغبة والواقع؛ بين المعقول والمستحيل. كان لديَّ يقين بأنّ جيشنا الوطني لن يقف مع الشعب إن قام على النظام الحاكم، ومن ثَمّ فإن الثمن

لن يكون رخيصاً. والتخلص من تَبِعاتِ أَسرٍ ديكتاتوريّ دام أكثر من أربعين سنة سيتطلب سجادة طويلة مصبوغة بالدّم، فباب الحرّيّة بعيدٌ بعيد.

# أبواب الحرية تُقرع

## ١٧ شباط/ فبراير ٢٠١١

قد يقال إن الأمر حدث فجأة، لكنّ بذور الياسمين تحتاج إلى كثيراً من الوقت قبلَ أن تَشِبَّ أغصانها وتتسلّق الأسوار. ولو أنّ عَبَقها قد زيّنَ حارات الشّام، فإنّ اندفاعها قد سُقِيَ بالكَبْت ونظرية «آذان الجدران» التي تسمع كلّ شيء في كل وقت.

«جاك الدوز يا دكتور، الشعب يريد إسقاط النظام، ويسقط بشار الأسد». كتب أطفالٌ على جدران مدرسة *الأربعين في درعا*. قبل ذلك، كانت المدينة تكاد تختنق بسبب التضييق عليها واستشراء الفساد فيها. لم يكن الأطفال يعرفون شيئاً غير شعارات لربما سمعوها من التلفاز، وارتأوها مناسبة لوضعية الشعب المستكين المظلوم، أو لربما كانوا يعرفون أكثر من ذلك بكثير. ثم زاد طينَ الغضب بلّة إرسالُ ابن خالة بشار الأسد، عاطف نجيب، رجاله للقبض على الأطفال وتشتيتهم بين سجونه وبين مركز المخابرات الجوية في دمشق. ولمّا طال غياب الأطفال الست عشرة وتأكّد أمر تعذيبهم، ذهب أهلهم في طلبهم. لكنّ ذلك كان سُدىً. فالإجابة جاءت واضحةً بقدْر الحقيقة المُرّة التي لطالما تغاضى عنها الشعب المستكين بحِجّة السُترة: «انسوا أمر أولادكم، واذهبوا إلى نسائكم

فحبّلوهنّ وأتوا بأولاد جدد، وإن لم تستطيعوا أو لم تكن عندكم الرجولة الكافية، فنحن لدينا رجال وهم يتكفلون بتحبيلهن»؛ في الحقيقةَ إنّ نظام الأسد يعتبر سوريا مجرّد مزرعة، والسوريين مجرد عبيد له. من هناك اشتعلت الثورة التي كان أول ضحاياها فتياناً دونَ الخمس عشرة سنة، وارتفعت صيحات «الموت ولا المذلة» سويةً مع «يا عاطف يا نجيب بدنا ننسيك الحليب».

يومَ انتقلت العدوى إلى الشام، ودبّت الحَمِيّة في أهلها، كنّا نتابع التلفاز كثيراً، بالإضافة إلى تصفح المواقع الإخبارية عبر شبكة الإنترنت. لم يكن موقع فيسبوك رائجاً حينها في أوساطنا، ومن ثمّ لم يكن لي حساب عليه بعد. لكنني حرصت أشد الحرص على متابعة الدعوات للمظاهرات وتَتَبُع أخبارها على المواقع المناصرة للثورة. كانت أولى الدعوات تقولُ بالتجمع في «ساحة الساعة» في حمص للتظاهر نُصرةً لأهالي درعا، فما كان مني إلا أن حفظت هذه الجملة جيداً وعقدتُ النّية على الخروج وفي ذهني الكثير من علامات الاستفهام حول ما سيحصل.

لم أفكّر ملياً في الموضوع. سيكون التجمع في ساحة الساعة التي تقع في شارع شكري القوتلي، حيث يرتفع برجٌ عالٍ تعتليه غرفة الساعات مُطِلةَ بساعةٍ من كلٍّ من الجهات الأربع. وكان من البديهيّ أن أستيقظ في ذاك النهار وأتوجّه مباشرة لأداء صلاة الجمعة في المسجد الأقرب إلى الساحة كي أسارع في الانضمام إلى جموع المتظاهرين حالما ننتهي من الصلاة.

لُبُّ الثورة كان الياسمين، ومَنبتها كان الشام. وكيف لا يكون إذ هبّت سراعاً تنتصر لصوت المكلومين الذي صدح في درعا؟ انتفض الناس على صوتِ «عماد نسب» في منطقة الدرويشية إذ

اعتدى عليه عناصر الشرطة واقتادوه إلى مبنى مهجور وهم يضربونه، ليكسروا بذلك صوم أربعين سنةٍ عن الكلام... خرج العشرات أخيراً في مظاهرة من بعد صلاة الظهر من المسجد الأموي في دمشق، متوجهين إلى سوق الحميدية وصولاً إلى ساحة الحريقة فيما سمّي لاحقاً بمظاهرة الحريقة. رددوا وهم يسيرون على قلب رجل واحد هتافات تنادي بالحرية؛ «الله... سوريا... حرية وبس!» و«الشعب السوري ما بينذل». كانوا قد أصبحوا قريبين من وزارة الداخلية ومديرية شرطة دمشق لمّا جوبِهوا برجال الأمن الذين اعتقلوا مَن اعتقلوا مِن المحتجّين. إبّان ذلك، انسلّ بعض الموالين للنظام يهتفون له بين الجموع مؤدّين إلى فضّ التظاهرة.

في اليوم التالي، كرر المحاولةَ مجموعة من المعارضين. تسلّحوا بأصواتهم الصدّاحة وخرجوا إلى الطريق نفسه متوجهين إلى مبنى وزارة الداخلية السورية حيث احتشدوا في ساحة المرجة يهللون ويصيحون للحرية منادين بإسقاط النظام. لم يدم ذلك طويلاً حيث تدخّل عناصر الأمن معتقلين بعضهم ومشتتين ما تبقى من الجموع.

# يوم الغضب

كان لِزاماً على البركان، بعد أن غَلى قلبُه طويلاً، أن يفور. وعند نقطة الصّفر، تماماً حين وقفت حِمَمُه على الفُوهةِ قبل أن تتحوّل إلى مقذوفات بركانية، استدعى الأمر أن يكون لتوقيتِ الانفجار اسمٌ يدلّ على مكنوناتِه، كأن يكون اسمه «يوم الغضب».

خرج الناشطون في يوم الغضب بعد أن عُمّمت الدعوات إلى المظاهرات في الشام، ولم تكن الفرحة لتسعني، أنا الذي ما ظننت يوماً أنّ لحاجز الخوف أن ينكسر. بعدما سمعت بما حصل في درعا، وحيثُ كانت التحركات قد بدأت في كثير من المناطق، فرحتُ كثيراً لأن الشعب قرر أخيراً أن يقول كلمته. كان ذلك بمثابة إدراك الشعب بأنّ له صوتاً يُمكنه أن يتكلم بغير الهمس، بل حتى يمكنه أن يصيح... وأخيراً، وُجِدَ ما يُحرّك الشعب السوري بأكمله، ويوحّد سَيْره كموجة يجري فيها نبضُ الضمير.

كان جُلّ ما يشغل تفكيري حينها هو كيفية المحافظة على كلمة الشعب واحدةً، فيجب أن لا يحتاج الأمر إلى أكثر من شرارة حتى تمتدّ شُعلته. وبالفعل، فإن أحداث درعا التي أوقدت الثورة ومدّت ألْسِنة نيرانها انطلاقاً من أقصى الجنوب كانت ماسّة بكرامة النّاس، ولا أغلى من ذلك لشحن النفوس وشحذ الهمم.

توجهت إلى مسجد «الدروبي»، وصليت الجمعة مع المصلين. طبعاً، كانت خطبة الجمعة حول المواضيع المعتادة بتوجيهات من النظام الأسدي، فاسترسل الخطيب بحديثه عن أحوال البلد والمعيشة يمدحها ويطبطب لروح القومية بين الجملة والأخرى. وما إن شارفت الصلاة على الانتهاء حتى انتفض شاب من بين المصلين يصرخ: «يا شباب، انصروا إخوانكم في درعا! الله أكبر!». كانت نبرة صوته تسري قشعريرة في أبدان المصلين المتراصّين فوجدوا حناجرهم تهتف من بعده: «الله أكبر، الله أكبر». كنتُ يومها مع صديق لي نُكبّر ونهتف: «بالروح بالدم نفديك يا درعا .الله، سوريا، حرية وبس»، وبدأت هتافاتنا تملأ المسجد حتى ازدحم بها فضاؤه. وفجأة، بينما التكبيرات تعلو والمصلّون يتكاتفون، أُغلِق باب المسجد الرئيس، وطوّقتنا مجموعة من المصلّين الذين كانوا في الصفوف الخلفية، وإذ بهم عناصر أمنٍ ينتظرون انطلاقنا حتى يُخمدوا أصواتنا قبل أن تنتقل عدوى الثورة.

صاح العناصر يبحثون عن أوّل من هتف، ثمّ أشاروا لبعضهم عن مكانه وانقضّوا عليه ليخطفوه ويُخرجوه من المسجد. بدأنا نصرخ لبعض ألا تتركوا أخاكم بين أيديهم، وفي غضون لحظات، اشتبك المصلّون مع العناصر يتضاربون بالأيدي حتى أدموهم وخلّصوا الشاب الذي لاذ بالفرار. عندها أحسسنا بنشوة النصر وتأكدنا أنّنا على الطريق الصحيح، فتكاتفنا وخرجنا من المسجد منطلقين نحو الساحة تعتلينا غمامة من الهتافات تؤكّد سلميّة الحِراك والمطالب. كنا عشرين أو ثلاثين شخصاً، لكنّ التعاطف كان بادياً في عيون الكثيرين من حولنا. كانت تمنعهم مخلّفات القهر من التقدّم معنا، وكانت تُسيّرنا الفرحة من بعد أن تسبّبنا بهروب العناصر تاركين أحذيتهم وراءهم.

حين وصلنا إلى جانب البرج بدَوْنا قلّةً تضيع في اتساع الساحة، وذهبت هباءً أصواتنا في فضائها الرّحب. كانت تلك الضربة الثانية لصرختي الأولى، وخطأً فادحاً نتيجةَ القدوم إلى المسجد الأقرب من الساحة. تجمّع عناصر الأمن حولنا بكامل جهوزيتهم مقابل أيدينا الفارغة، فَعَلا صوتنا نؤكد سلميّتنا لنثبت صفاء نوايانا. كان الوضع يزداد سوءاً كلّما اقتربوا منّا، فنرفع أصواتنا علّ صداها يُبعِدهم قليلاً. لم تنفع «بالروح بالدم نفديك يا شهيد»، ولا «سلمية سلمية، إسلام ومسيحية» في درء أذاهم عنّا. كنّا نحاول بكلماتنا أن ننأى بأنفسنا عن الاتهامات بالعنصرية والطائفية التي قد تُنسَب إل المتظاهرين كما حصل في مصر، لكنّ ذلك لم يُجدِ نفعاً.

بدأ الهجوم بالعِصيّ، الكهربائية وغيرها، ضربونا. في خضمّ المشهد، يُخيّل للرّائي أنّ الصورة من فيلم عنيفٍ يستحيل على مشاهده أن تُنَفّذ في عرض الشارع على مرأى من أعين الناس، لكنّ السّرعة التي توجّب علينا الحِراك فيها لم تترك مجالاً للتحليل أو الفهم. تشنج البعض ووقع، وآخرون تجمّدوا في أماكنهم، وما كان علينا إلا أن نلوذ بالفرار، لكن الأمر لم يكن بالسهولة التي تُروى بها الأحداث. ركضتُ أحاول الخروج من الدائرة التي علقنا فيها، لكنّ أحد العناصر أمسك بي من سترتي، وبينما نحن في حال شدّ وتنافر، فتحتُ سحّاب السترة وخلعتها عنّي ثمّ أكملتُ العَدْوَ بعيداً حتى تواريت عن الأنظار بين المدنيين.

كان في الساحة مقهى مشهور اسمه مقهى الروضة، جلستُ على أحد كراسِيِّه وطلبت كأس شاي بسرعةٍ، فتعاطف معي النّادل ووضعها أمامي من فوره حتى لا أثير الشكوك. من هناك رأيت كيف اعتُقل الشباب والرجال ووُضِعوا في سيارات الأمن من غير أن

أستطيع أن آتي بحركة. كيف يحدث كل ذاك؟ كيف أكون شريكاً في الهتاف، ثمّ أجلس بعيداً بينما يجرجر شركائي إلى السجون؟ كيف تنطفئ الثورة من قبل أن تشتعل؟ كيف للشام ألا يكون فيها وليٌّ ولا نصير؟ ذرفتُ دمعاتٍ حارّة على العجز الذي تلبّسني والناسَ من حولي؛ على كمية الخذلان التي أغرقَ فيها النظام الشعبَ، فلم يعد يستطيع قولاً ولا فعلاً.

كنتُ قد بدأت بلوم نفسي على القدوم إلى هذا المسجد لِقُربه، لكنني عزّيتُ نفسي بأنني بذلت جهدي للمشاركة في المظاهرة، ولو أنها لفظت أنفاسها إبّان الولادة. انضمّ الشبيحة[1] بلباسهم المدني إلى عناصر الأمن ووقفوا بسلاحهم في الساحة يهتفون للنظام الأسدي ورأسِه دلالة على انتصارهم، فتحوّل دمعي الخجول إلى بكاء. وضعت كفّي على عينيّ أواري سوءتهما، وقلبي يئنّ على الدّعوات التي نُشرت على أوسع نطاقٍ فما أثمرت إلا بعض رجالٍ اقتيد أغلبهم إلى السجون التي لا يعود منها إلا مديدُ العمر. ثم ماذا؟ يتحوّل هتاف الحرية في غضون لحظات إلى صراخ يؤكد بقاء السّوط في يد الجلاد. طأطأت رأسي وأنا أنتحب ناعياً الثورة. يقولون الرجال لا يبكون، ثم يستعيذون بالله من قهر الرجال. أوليس هذا قهراً يستلزمُ أقلَّ الأمرِ البكاء؟

وبينما أنا مستغرق بالتفكير، تناهى إلى سمعي صوت هتافات خافتةٍ لم أميّزها من هتافات الشبيحة. كانت تزداد وتيرة الهتافات ويرتفع صداها رويداً رويداً إلى أن اجتاحت سيول الناس الطرقات المؤدية إلى الساحة، فملأتها بالمتظاهرين القادمين من كل حدب

(١) رجال موالون للنظام بلباس مدني.

وصوب. وعلى الأكتاف رُفِع الهتّافون، يقولون فتُعيد من ورائهم الجموع. مسحتُ دموعي ووقفت أستعيد أنفاسي المقطوعة؛ إنّها حِمصُ، كُلُّها في السّاحة!

انقلب دمع الحزن إلى فرح وتهلّلٍ بمجيء المتظاهرين فارتعب رجال الأمن وتراجعوا إلى أطراف الساحة محتارين ما الذي يتوجب عليهم أن يفعلوه. أما أنا، فتركت كأس الشاي وانضممت إلى الحشود أهتف معهم وأردد صيحات النُّصرة لدرعا مدة نصف ساعة تقريباً. لم تكن تسعني الدنيا كلها من فرط السعادة بينما أسير وسط الجموع كأنّما يجمعنا نبضُ قلبٍ واحد، وإيقاع أنفاسٍ ثابتٌ، وخطى واثقة تَذْرَعُ الأرض، وأصوات صدّاحة تشقّ عنانَ السماء. كان حَراكنا مربكاً جداً للأمن؛ حيث قرروا بعد إمعانٍ أن يطلقوا الرصاص في الجو، كانت تلك ساحة التعارف حيث سمعنا أزيز الرصاص لأول مرة، وكما لكل شيء تجربة أولى، لن أكذب وأقول إنّنا كنا أبطالاً، بل إنّ السَّيْر تزعزع قليلاً حتى تبيّنّا ألا إصابات. بعد ذلك، لمّا لجأ العناصر إلى القنابل المسيلة للدموع، ثم أطلقوا الرصاص الحي على الناس، أصبح أقلّ ما يقال في الوضع إنّه صعب.

كان للقلب أن ينبض على الرغم من النزيف في الأطراف. صاح الناس يشدّون أزر بعضهم؛ أذكر شاباً علا صوته يومها يوجّه الناس ويثبّتهم: «كرمى لعيون أطفالكم»، «الثباتَ الثباتَ لأجل مستقبلهم». تركَت تلك الجمل أثراً بليغاً فينا، إذ لم نكن قد شهدنا من قبل نشاطاً ثورياً. كنّا حديثي العهد بالهتاف، بالقنابل، بالرصاص الحي، وبالدم يسيل في وضح النهار على مرأى من العالم. استشرس الأمن وصار يطلق الرصاص بكثرة فتقدّمتُ أُسعف الجرحى وبعض حالات الاختناق؛ أوقظُ المغمى عليهم، وأضمّد جراح

المصابين. كان ذلك تطبيقاً حيّاً لما درست في الجامعة، وكأنّني ما تعلّمت كل ما تعلمتُ إلا لهذه اللحظة.

اعتلى، في لحظة غضبٍ جامح، شابٌّ في مقتبل العمر مدخل نادي الضباط قرب ساحة الساعة وجرى يمزّق الصورة الكبيرة من اليمين وصولاً إلى وجه حافظ، فركَلَه بعزم من يريد أن يفقأ عينه، ثم أكمل بيده يهشّم ملامحه قبل أن ينزل تاركاً نصف الوجه معلّقاً شاهداً على ما فعله هذا الشاب. كان تمزيق صورة حافظ الأسد التي شكّلت رعباً للكثيرين على مدار أربعين سنة خير دليل على انكسار حاجز الخوف الذي كأنّما وُشِم على جلد الشعب لحظةَ الولادة.

بعدَ ذلك فرّقَنا الغاز المسيل للدموع، فعدت إلى منزلي في القُصَيْر فرحاً جداً لأنّ الشعب ـ وأنا منه ـ قرر قول كلمته، ولأن أهل حمص العديّة لم يخذلوا إخوانهم في درعا. بعد أن عدتُ بدأت تتوارد إلى رأسي الأفكار، ثمّ تركّزت حول موضوعين رئيسين، كان **أولهما** ضرورة إنشاء مشفى ميداني لتدارك ما يحصل أثناء المظاهرات، فقمتُ وبعضَ الأصدقاء بتجهيز واحد هو الأول من نوعه في منطقة البساتين، واشترينا له مستلزمات متواضعة كالشّاش، واللاصق الطبي، وبعض المعدّات اللازمة للحالات الخفيفة مثل أدوات الخياطة والجراحة. أما **الأمر الثاني** فكان استحقاق إيصال صوتنا إلى العالم، حيث إن النظام يستطيع أن يبيد الشعب من غير أن يُسمَع أنينه. كما أن الشعب السوري لا يقلّ عن شقيقه المصري أو الليبي أو التونسي في شيء[٢]، فحاجز الخوف الذي بُنيَ على مدار عقودٍ قد تشقّق والطريق إلى هدمه مفتوح، وقبل أن يعلم العالم بحَراكنا، كان يتوجب أن ينتقل الصوت إلى المحافظات السورية

(٢) عند بداية الثورة السورية، لم يكن الانقلاب العسكري قد حصل في مصر بعد.

الأخرى، وعلى رأسها درعا المنكوبة بأطفالها: أنّا نحن ههنا معك.

صرتُ أصول وأجول وأنا أفكر ما الذي عليّ فعله حتى أُسهم في نشر الخبر، حتى مرّ ببالي أن أُرسل رسالة قصيرة إلى الشريط الإخباري على إحدى القنوات المناصرة للثورة. وما إن داعبت الفكرة مخيلتي حتى أمسكت بهاتفي وبعثت من رقمي الخاص رسالة إلى قناة أورينت التلفازية نصّها الآتي: «*حمص: خروج مظاهرة حاشدة في ساحة الساعة بحمص نصرة لأهالي درعا، تعرضت لإطلاق نار من قبل الأمن السوري ما أدى لسقوط شهداء وجرحى*».

طفلٌ أعطيته عيديته فلمعت عيناه؟ مشتاقٌ ملّكته رؤية حبيب بعد غياب؟ شخصٌ مَلّكتهُ الدنيا بعد أن كان على شفير الإفلاس؟ كان ذلك أنا لمّا رأيتُ رسالتي تمرّ على الشريط الإخباري. كان جلّ هدفي إيصال الفكرة، لكن تلك الفكرة سحبتني رويداً رويداً إلى تيّارٍ سيُعطيني، ثمّ يأخذ منّي أكثر فأكثر.

بعد الأسبوع الأول، «جمعة الكرامة»، بدأنا ننتظر يوم الجمعة لنرى إن كنّا سنعيد الكرة أم لا. وريثما يعود يوم الجمعة، كانت تتمّ حملات ترهيب واعتقالات خلال الأسبوع تهدف إلى إضعاف النفوس وثَنْيِها عن الانضمام إلى الثائرين، فتُخلّف أسئلة كثيرة وراءها، لا مجيب عنها إلا الوقت؛ هل ستدفن الثورة؟ هل ستتقوّض شجاعتنا؟ هل من المعقول أن تفتر هممنا، أم أن زخم المظاهرات سيتضاعف؟

كنت ما زلت أرسل الأخبار إلى الشريط الإخباري في القنوات المناصرة للثورة من رقمي الخاص. هذا الأمر يسّرَ لبعض القنوات التواصل معي، منها قناة **أورينت** الإخبارية. سألوني إن كنت متواجداً في سوريا، ودعوني إلى المشاركة في برامج مفتوحة. بادئ الأمر

ترددت... كيف أتكلم على الهواء مباشرة بهذه البساطة من دون أن أعرض نفسي للاعتقال، هذا إن اقتصر الأمر على ذلك. بعد تفكير مليٍّ وافقت. كُلُّنا عبيد الرحمن، قلتُ لنفسي، فسميّت نفسي عبد الرحمن. حدّثتُ نفسي بأنني لا أكذب، وفي الوقت نفسه أحقق هدفي وأوصل الفكرة. عرّفتُ عن نفسي عبر الهاتف كشاهد عيان من حمص، ورويت بحرقة ما حصل في حمص نصرة لدرعا، فكانت المرة الأولى.

# النظرة الأولى

لم تتوقف المظاهرات التي أصبحت نبض المدينة. وفي واحدة من تلكَ تعرّفتُ إلى نبض قلبي؛ طراد الزّهوري. أن تسألني «كيف» فهذا أمر غير وارد لأن الموضوع ليس ببساطة اتخاذ قرار وتنفيذه. بل كأنّه قدرٌ محتّم تتهيّأ له كل الأسباب، فيعمى البصر وتصم الآذان ويسير الجسد إلى مصيره ببصيرة من الله ﷻ. كذلك كانت صداقتي مع طراد ـ أو قل أخوّتي معه ـ كان البعض يستغرب صداقتنا خاصّة أنه أكبر مني بعشر سنين ونيّف، لكنّ الأرواح حين تتآلف لا تسأل عن صورةٍ ولا تاريخ ميلاد.

ربما بدأ الأمر كله بسلامي عليه، أظن أنني يومها تقرّبت منه بدافع الفضول. كان يحمل آلة التصوير الخاصة به ويوثّق المظاهرات، بينما يقف الخبر في بلعومي ريثما أبثّه إلى الإعلام. قلتُ له اسمي، محمد، وأخبرته أنني على تواصل مع بعض المحطات الإعلامية ما جعله يثق بي ويحدّثني عن عمله ونشاطاته، وجعلني ألمس فيه الهمّة العالية التي تنتقل بالعدوى.

لاحقاً، تشكّل المكتب الإعلامي في القصير، وكان يضمّ عدة أشخاص؛ جعفر، محمد، حسين، فادي، طراد وأنا. في بادئ الأمر، كنت أجلس معهم بحكم توفّر شبكة الإنترنت وللمساهمة في

العمل، ثمّ تطوّر الأمر إلى أن أصبحنا نأكل وننام ونذهب ونجيء معاً، حتى صارت لي أسرة أخرى أراها أكثر مما أرى أهلي وأقاربي. لكنّني كنت أرى في طراد شخصاً مميزاً عن الجميع، وسهّل تواجدي معه في المكتب مرافقتي له في تغطية الأحداث، وإذا حصل أن أضعتُ طراد أو فقدتُ موقعه، كان يصل الجواب بمجرد أن أصل إلى مكان مجزرة أو قصف أو اشتباك. لقد سبقني إلى الواجب.

جمَعَنا الهمّ الواحد، فبدأت صداقتنا تأخذ مسارها الجَليّ بخروجنا معاً إلى التظاهرات ومن ثمّ الانجراف في تيّار الإعلام معاً، كلٌّ على طريقته. كان يزورني في منزلي أحياناً كما قصدتُ منزله مزاراً، ثمّ ارتأينا أن من الأفضل أن نتّخذ لنا منزلاً نعمل فيه معاً ونقضي معظم أوقاتنا. وحين كانت تسبق عناصرَ الأمن أخبارُهم، كنّا نتفادى مداهماتهم بالهروب معاً نحو منطقة البساتين، الأمر الذي نمّى فينا مسؤولية حماية بعضنا وزادنا قُرباً ومودّة. الخطر المُحدِقُ بنا نفسُهُ وهَمُّ الخبر الذي نريد إيصاله معاً، لم يكن ليُعبّر عنهما شيء أكثر من «وحدة المصير».

أحببتُ تعلّقه بآلة التصوير. كان هاوياً للتصوير قبيل بزوغ فجر الثورة، يصور الرحلات واللوحات الطبيعية الخلابة. ماذا أستطيع أن أقول عنه؟ بعض الناس خرجوا ثأراً لفقرهم، وآخرون قاموا انتصاراً لكرامتهم، أما طراد فقد ثار لأجل جميع الناس قبل أن يثور لنفسه. لم يكن ينقصه مال كي يُلبِس ثورته حِجّةَ الحاجَة، لكن حب الوطن الذي نغّصه ذلّ الشعب كان كفيلاً بجعله يكرّس بنيَتِه القويّة وخبرته في التّصوير وهمّته العالية لخدمة الثّورة.

يوم اشتعلت الشّرارة الأولى، حمل طراد وإخوته أنفسهم من قبرص تاركين خلفهم أملاكهم التي تتوزع بين قبرص ولبنان، تحوّلت

عدسة كاميرته بين يوم وليلة عن البحار والهضبات إلى الاشتباكات مع الأمن ودخان القنابل وركام القصف وأشلاء الضحايا. وكما لكل عائلةٍ نصيبها، كان لطراد أخٌ «مهيد» شهيدٌ، وآخران نالا حِصّتهما من الإصابات، عُرف أحدهما بهُتافاته في المظاهرات.

لمّا بلغ منتصف الثلاثينيات، انشغل بالثورة وأصبحت شُغله الشّاغل، ولم يكن الزواج في دائرة اهتماماته بعد، فكانت آلة التصوير عروسه. وكان يُحسِنُ دلالها ويُحبّها حدّ التقديس. ولمّا تمّ تشكيل الجيش الحرّ، كان ينظر إليها على الدّوام ثم يقول لي بيقين: «هذا سلاحنا». وإلى جانب عروسه هذه، كان له مرافقان دائمان: المتّة، والسيجارة.

إن تنظر إليه، لا ترَ أقلّ من بطلِ ملاكمة فاز ذات مرة ببطولة الملاكمة للجمهورية السورية، كان جلُّ هدفه لمّا أدى خدمته العسكرية في الدفاع الجوي أن يساهم في قتال العدو الإسرائيلي متى استوجب الأمر. له جثّةُ رجلٍ مهيب، أسمرُ بلون القهوة، مَرِحٌ ودود يذوي حُبُّه القلب كما تذوب «الغزلة» حالما تلامس الفم. ومع أنّ بُنيته الشديدة كانت تساعده جداً على الركض متى احتاج، إلا أنّ التدخين المفرط كان يسبب له سعالاً حين يركض.

شخصٌ مثل طراد الزهوري، يتقن فنّ السّعادة، كان قادراً على لملمة الأمل من على الرّكام، حتى لو غطّته الأشلاء. ولعلّه كان يستقي ذلك من مواظبته على الصّلاة في أوائل أوقاتها بشكل لافت. للشخص أن يؤخر صلاته مرّة أو يضطر إلى تأجيلها بسبب ظرف طارئ، لكن بالتأكيد ليس إن كان طراد. كانَ لي الأب والأخ والصّديق وإشعارَ الأذان، ومن على شفتيه تعلّمتُ درساً تطبيقياً عن

نطق الشهادتين أثناء الخطر. من يعرف طراد لا يستطيع أن ينسى أن «بشار الأسد وجيشه وطائراته» لن يغيّروا شيئاً ما دامت في يده «قرعة المتّة والسّيجارة».

# القناع

عبد الرحمن، أخيراً أصبح اسمي أمام وسائل الاعلام. لكنّ ذلك لم يدم طويلاً، فأنا لم أُعمِلْ عقلي كثيراً حين تكلّمت من جوّالٍ محليّ، ولم يجُل في فكري أنّ الأمور قد تأخذ منحىً آخر. جاء الاتصال الأوّل فالثاني فالثالث... ثمّ توالت الاتصالات من مفرزة الأمن العسكري. «نحنا منعرف بمداخلاتك على المحطات باسم عبد الرحمن من صوتك». كُتبت التقارير عنّي، وفي أذهان أبناء سوريا ما فيها من صور قاتمة عن مفردة «تقرير» ومشتقاتها. هذا يعني باختصار أنني مطلوب للأمن، وقد يُلقى القبض عليّ في أيّ لحظة، ثم أغيب كمن لم يكن لِذكره وجود. أخذَتْ التهديدات تصل تِباعاً لإيقاف نشاطي الثّوري، وتحديداً تواصلي مع الإعلام، ما اضطرني وعائلتي إلى دقّ أبوابِ الوساطات ودفع الرّشاوى حتى لا تبلعني إحدى أقبية السجون. فوق المال والرّجاء، كان تعهّدٌ بعدم العودة إلى ذلك مجدداً. لكن كيف لي أن أسكت، وبركانُ الثورة قابعٌ فيّ؟

# صوتي الجديد

عدت أفكر ماذا أفعل، ينبغي للخطوة الثانية أن تكون أكثر ذكاءً وحذراً. قلتُ في نفسي إنّ عليّ استخدام جوّال برقم غير محلّي حتى لا يكون تحت المراقبة، وكان هذا سهلاً لأنّ التغطية متوفرة للشّبكات اللبنانية في مدينة القصير كونها قريبة من الحدود. طلبتُ رقماً لبنانياً إثر ذلك من أحد الأصدقاء فأمّنه لي مع جهاز جديد. تالياً، كان عليّ تغيير صوتي حتّى لا يعرفه الواشون فأعود إلى نقطة الصفر. قررت وضع إصبعَيّ في فمي لتوسعته بينما أتكلّم، فتتعثّر الكلمات وتخرج على غير هيئتها الأصلية دون أن تتأثّر إمكانية فهمها. وأما التكتيك الأخير فكان خلق شخصية جديدة أتكلّم باسمها وأظهر على أنّني هي. فكّرتُ باسمٍ لا يثير المشاكل لي، ولا لأي أحد. وبعد طول تفكير، قررت أنّني سأكون سمير. سمير فتحي.

كيف جئت بالاسم؟ أو من أين؟ في الحقيقة، حين كنت في مصر إبّان البعثة التدريبية التقيت شخصاً أحببته، وكان له هذا الاسم. وحيث ألا أحدَ من كنية «فتحي» يقطن في القصير، كان الموضوع درءاً جلياً للشبهات.

بدأت أتواصل مع المحطات بصوتي الثخين المتحول، وباسمي الجديد الوهمي. كانت الأمور كلها تسير على ما يرام، ولم يكن لأحد أن يعرف أنّ لي وجهين؛ وجه شخص يكاد لا يشارك في

المظاهرات ولا يأبه للثورة إلا قليلاً، ووجه آخر لا صورة له، بل صوتٌ صدّاحٌ ينقل بخفّة أخبار الثوّار والمتظاهرين عبر سماعات الهواتف لتصل إلى المحطات على الهواء مباشرة. كنت أدرك أنّني أضع إصبعيّ في فمي وعشرة أصابع في النّار، فلم أُعلِم أهلي بأنّ سمير فتحي هو وجهي الآخر، إلا أمي؛ الجنّة التي كانت تسترني حين أغيب، وتختلق الأعذار للجميع في غيابي ريثما أقوم بالمهمة. كنتُ أعمل بسرية، حتى عن المكتب الإعلامي، حتى عن طراد. لمّا رأيته أول مرة يصور بآلة التصوير الخاصة به، تيقّنت أن أهدافنا واحدة، بل متكاملة. وبينما كانت تتأجّج نيران الثورة، كان الشباب ذوو الرؤية الواحدة يبانون لنا من كل حدب وصوب. وفي تلك الفترة، كان لي حساب سكايب[1] باسم «أبو عدنان»، لقبي منذ زمن. كنت أتواصل من خلاله مع مجموعة من الأصدقاء والناشطين من حمص والأرياف. في غرفة التواصل تلك، تعاهدنا على نقل الحقيقة، ولا شيء غيرها، يوماً بيوم، من دون أي مبالغة أو تزوير. هكذا، كانت لي في كل حارةٍ عينٌ، وفي كل حيّ أذن، لكن اسمي لم يكن معروفاً للجميع، وكان يكفي أن أكون لهم أبا عدنان.

لأنّ الصدر يضيق بالسّرّ، ولأنّ بعض الأصدقاء أكثر من إخوة، ولأنّ يداً واحدة لا تصفق، كان لي عدة أصدقاء يعرفون بحقيقة سمير فتحي، منهم صديق ناشط من حمص اسمه بسام، وآخر هو أبو عمر من اللاذقية، مكان دراستي سابقاً. وكنت ما زلت أتحايل على الحواجز بالسّير على الطرقات المحاذية، وأتعمّد الركوب بسيارة خاصة حين أريد عبور الحواجز المعروفة بالاعتقالات المتكررة. هكذا كنت أصل إلى اللاذقية للمشاركة في المظاهرات، حيث كتبتُ وأبا عمر اليافطات وكنّا كالكثيرين جزءاً من الحَراك الثوري.

---

(١) Skype.

# على ناصية الحلم

إبّان ذلك، كنتُ قد بدأت أُدرِّس التمريض في فرع جامعة البعث في حماه، كنتُ أنطلق من القصير إلى حمص بسيارة خاصّة كي أتجنب الحواجز التي تتمّ عندها الاعتقالات التعسّفيّة، وبعد ذلك، كنتُ أنتقل إلى حماه بحافلات النقل العام. في إحدى المرات، كنتُ أستقلّ الحافلة متوجّهاً إلى حماه، فأوقفَنا حاجزٌ أمنيّ قبل أن نصل بقليل؛ طلب رجل الأمن منّا بطاقات الهوية، فخفت قليلاً، أحد الركاب بجانبي أراه بطاقته مُرفِقاً إياها بغمزة عين وكلمتين: «أنا زميلك». لم يمضِ وقتٌ طويلٌ حتى عادت البطاقات كلّها... إلا بطاقتي. قال بلؤم: «انتظروا»، ثم حوّل نظره إليّ وتابع: «وأنت، انتظر». قلتُ في نفسي: «لقد وقع المحذور».

نصفُ ساعةٍ من الانتظار دفعها كلّ الرّكّاب ريثما تعود بطاقتي أو ألحق بها. نصف ساعةٍ وأنا لا أدري ما الذي يمكن أن يحصل، وهل سيكون طريقي مفتوحاً نحو حماه أم إن حياتي ستقفُ هنا عند هذا المعبر. لقد انتهى أمري، حدّثتُ نفسي. لا فرصة ثالثة. حاولت أن أنظر إلى رجل الأمن بجانبي، ثم أخرجت هاتفي الجوّال بحذر لأنتزع منه بطاقة الذاكرة وأرميها من النافذة من دون أن يلحظ أحد، بعد ذلك أخذتُ أمحو الأسماء والأرقام منه، حتى الرّسائل لم تسلم

من الزوال. ولمّا أنهيتُ احتياطاتي، عاد إليّ رجل الأمن بوجهٍ بريءٍ مناولاً إيّاي بطاقتي وداعياً لنا بالتوفيق في إشارةٍ إلى السائق بالانطلاق: «الله معكم!». يومها، كان أبلغ وصفٍ لما حصل هو أنّ «الله كان معي». لكنّ الرسالة كانت واضحةً، على الرغم من السلامة، أنّ الجرّة لن تسلم في كل مرّة.

بعد شهر ونصف من الثورة اضطررت إلى الغياب عن محاضرتين متتاليتين في الجامعة. كنتُ أدرّس يومي الأحد والأربعاء، وحين تلقّيت اتصالاً من الإدارة ينقلون لي استفسار الطلاب عن غيابي، كان لزاماً عليّ أن أضع حداً لتنقّلاتي في ظل تلك الأوضاع. بعد شهر ونصف فقط، تركت التدريس في الجامعة. وبعد أن آتى الزرع أُكُلَه، وبدأت علاقتي بالطلاب تسمو وتحلو، وبدأ جهدي يُثمر في زرعِ حبّ الإنسان للإنسان، كان على تلك الحقبة الجميلة أن تنتهي. اعتذرت عن متابعة الحضور من غير أن أفصح عن السبب، ولم تُثنني عن ذلك إشادةُ الطّلاب بي، ولا حسن سيرتي بينهم. ولو أنّ ذلك آلمني في غيابي أكثر فأكثر.

# الحيُّ الميْت

حين بدأت الانشقاقات تدكّ صفوف الجيش المُوالي للنّظام، انضمّ بعض المنشقّين إلى الثورة من دون أن يُعلنوا ذلك. من محله التجاري في منطقة باب هود، اعتُقِل بسام. وليس طبيعياً على أزلام النظام آنذاك ألّا يبطشوا بالمعتقلين ويذيقوهم أشد أنواع العذابات...

أُخبِرتُ أن الأمن يراقب هاتف بسام ويعلم أنّه على تواصل مع سمير فتحي. مع أنّ بسام لم يذكر اسمي الحقيقي، ولا المستعار، لكنّ كلامه على الهاتف وهو ينقل إلى ما يجب أن أقول للقنوات عمّا يحصل في باب هود في حمص أعطاهم دليلاً قاطعاً على تواصله مع سمير. في ذلك الوقت تحديداً، حَمِيَ وطيس الصراع الداخليّ بيني وبين شخصيتي الأخرى؛ حيث بدأ جسد بسام يتلوّى تحت سياط التعذيب ليعترف باسمي أو مكاني، وبدأ عناصر الأمن الموالون للثورة محاولة الوصول إليّ بأيّ طريقة لأجد حلّاً يخفف عذابات بسام ويسكّن آلامه. لمّا وصل الخبر، كنتُ قد ضقت ذرعاً بالتفكير، وأنا أذهب وأجيء، وأكلّم نفسي والجدرانَ علّ حلّاً ينزل إليّ من السماء يزيح عنّي غمام الهمّ الذي يعتريني. وبينما أنا أفكر، وصلني خبر اعتقال أبي عمر هو الآخر، وأنّ عناصر الأمن يشكّون

في إمكانية علاقته بي. ومن ثمَّ وضعوه تحت السّوط نفسه لعلّه يشي بي، عندها طفح الكيل. إذ لم أكن قبلَ ذلك قد مررت بموقف أكثر إحراجاً، ولا ألماً، ولا وخزاً للقلب والعقل والضمير. لم يبقَ أمامي حلّ إلا أن أقضي على السبب في كل ذلك؛ أن أقتل سمير.

بعد التفكير والاستخارة، لم يبقَ لسمير خيار إلا أن يموت. كلّمتُ أشخاصاً ليتواصلوا مع القنوات وينقلوا خبر وفاته أو استشهاده. رصاص قناصٍ أرْداهُ جثّةً سحبها عناصر الأمن فلم يعُد لها أثر، هكذا لن يكون لأحد أن يسأل كيف أو أين، وفعلاً، هذا ما حصل. نقلت قناة الجزيرة الإخبارية خبر استشهاد سمير فتحي، المراسل العتيد، عضو تنسيقية حمص، برصاص قناص. والأكثر من ذلك، قامت قناة وصال بالحداد ثلاثة أيام مع شريط على الشاشة ينعى سمير فتحي إلى جنان الخلد. وغير تلك الكثير من القنوات التي تناقلت خبر الاستشهاد، واستنفرت واستنكرت ونعت وتأسفت.

أمرٌ مضحك؟ مبكٍ...! صحيح أنّ الاسم مات، وأنّ سمير بقيَ حيّاً بإصبعيهِ، وصوتِهِ الثخين، والثّقةِ التي أوْلته إياه القنوات الفضائية بعدما جاهد أيّما جهادٍ حتّى أثبتَ أنّه متواجدٌ على الأرض، بين المتظاهرين من قلب الحدَث، لكنّه الآن شبحٌ ليس له أن يظهر أمام أحد، وإلا تحوّلَ لعنةً وبلاءً قد لا يسلم منه، لا هو، ولا بسامُ ولا أبو عمر. كان شعوراً غريباً، أن يكون جزء مني كالرّوح، يطوف فوق بقايا الجسد وهو يحاول أن يفهم معنى الغياب بينما يرى كلّ شيءٍ يتفلّت من يديه. كان موتاً قبل أوانه، وفي الوقت ذاته ضرورةً للانبثاق من جديد.

كان عزائي الوحيد أنّ موتَ سمير لم يذهب هباءً فقد خفّف آلام بسّام، حيث لا حاجةَ بعد ذلك إلى معرفة هوية سمير طالما أنّ

اتصالاته بالمحطات الفضائية انقطعت للأبد. وبعد فترةٍ، عبر بعض المعارف وبدخول الرشاوى على خط المفاوضات، خرج بسام من السجن، أمّا أبو عمر فقد نُقِل إلى سجنٍ مدني، هو سجن حمص المركزي، بعد أن كان في اللاذقية، حيث خفّ التعذيب هناك وتوقفت التحقيقات، إلى أن خرج لاحقاً في أواخر عام ٢٠١٤.

ثمّ عدنا إلى نقطة الصفر.

لم تُزَح أخبار حمص عن الواجهات الإخبارية لكثرتها وضراوتها وهمّة الشباب الذين انقلبوا مراسلين من تحت النار، لكنني كنت أحسّ بالذنب الشديد لجلوسي مسدل اليدين. كنت حتى ذلك الوقت قد استنفدت فرصتين، حيث شكّلتُ تهديداً لأهلي وأقاربي في المرة الأولى باسم عبد الرحمن مستخدماً صوتي الحقيقي، وقتلتُ جزءاً منّي في المرّة الثانية، باسم سمير، حيث لم يعُد صوتٌ معرقَلٌ بإصبعين يفي بالغرض. حاولت مراراً أن أعدّل صوتي مرة أخرى لكنّ محاولاتي باءت بالفشل. وصرتُ أبحث عن وسيلة بديلةٍ لتعديل الصوت خلال المداخلات، فلمْ أوفّق إلى ذلك. قيل لي أنْ يمكن تعديل الصوت في المحطة التلفازية بعد تسجيل الكلام، أمّا إبّانه فلا.

# دَيْنُ العاصي

على الرغم من حذري الشديد عند التنقل كان لزاماً عليّ بحكم عملي الجديد في الإعلام زيارة حارات حمص الثائرة ومناطق ريفها بابا عمرو، الخالدية، البياضة، القصور، دير بعلبة، باب السباع، باب هود، باب الدريب، كرم الزيتون، الرستن، تلبيسة، وغيرها. حمص كلها بأبوابها السبعة وحاراتها كانت تنتفض عن بكرة أبيها؛ مظاهرات ليلية كل يوم تتوّج كل منها بارتقاء شهداء ووقوع إصابات تشدد على أن الدرب ما يزال طويلاً وأن علينا لزاماً الوفاء لدمائهم!

انتقل جيش الأسد بين مناطق حمص في تلك الفترة؛ إذ لم يكن بمقدوره التواجد فيها كلها في آنٍ واحد، ولا سيما أن البركان قد ثار وخرج الشعب عن السيطرة بعد أن صام طويلاً عن الحراك والكلام. وحيثما حلّ ذاك الجيش، بطش بأهله وشعبه. وجاء دور مدينة القصير[1] فيما كان؛ حيث اقتحم الجيش وارتكب من المجازر أبشعها ليرتقي أربع عشرة ثائراً من خيرة الشباب على ضفاف نهر العاصي، كما لو أن النهر روى المدينة طويلاً فآن أوان رد الجميل.

وحّدت دماء صديقي معن وعبد الجواد، والبقية من الشهداء

(١) أيلول/ سبتمبر ٢٠١١.

أبناء المدينة، وشدت العزيمة عند أهلها، فأيقنوا ألا تراجع مهما حصل، والعاصي المقدس عند أهل القصير زاد قداسةً حينما امتزجت دماء إخوتنا فيه!

# الولادة

عند خط البداية، مجدداً، وقفت.

مُرخياً عن كتفيّ مسؤولية التدريس، استقررت في القصير، وصرت أعتمد في تنقّلي بين أحياء حمص على السيارات الخاصة تَذرَعُ الحارات الضيقة والفرعية تجنّباً للحواجز الأمنية.

بعد وفاة سمير، شهيد الواجب، بنحو عشرة أيام، قررت أن الحلّ الأمثل سيكون تأمين هاتف جوال يغيّر الصوت مباشرة. في ذلك الوقت لم تكن أجهزة الخلوي قد تطورت بعد، ولم يكن شائعاً في هذا المجال أكثر من برامج تحويل الصوت بعد التسجيل، إن كان على الحواسيب أو الهواتف. فكان تأمين ذاك الهاتف تحدّياً، خصوصاً في ظلّ سيطرة أجهزة نوكيا على السوق. بقيتُ أصول وأجول وأبحث حتى سمعت عن جوّال صينيّ الصّنع فيه ميزة تغيير الصوت، وطلبت من ابن خالتي الشهيد أسامة رَحِمَهُ اللهُ أن يحضره لي من لبنان. مقابل خمسين دولاراً، استحصلت على هاتف مستعمل، لكنه كان يفي بالغرض، وما إن وصل إلى يديّ حتى وضعت فيه الشريحة اللبنانية وابتدأت مرحلة جديدة جداً.

* * *

«بم أعرّف عنك؟»

«لحظة. . .»

«لحظات ونكون على الهواء مباشرة، بسرعة من فضلك»

«خلص، هادي»

«والكنية؟»

«هادي. . . هادي العبد الله!».

* * *

لم تكن هناك مناطق محررة بعد، لذا فقد كان موضوع الانكشاف التّام على الإعلام وعلى أعين النظام خطراً. وعندما أقول إنّ الأمر خطير، فأنا لا أعني بتاتاً الأذى الذي قد يطالني شخصياً بقدْر ما قد يطال أقرباء لي، وأصدقاء لا ذنب لهم بشيء، ليكونوا وسائل ابتزاز وضغط. فكّرتُ وأمّي مليّاً باسم لا يضرّ أحداً أعرفه أو قد يشتبه بمعرفته بي حتى يكون غطاءً إعلامياً لنشاطي بعد أن استحصلت على جهاز الجوال بميزة تغيير الصوت. . . لكن ذلك لم يؤدّ إلى نتيجة. أمّا وقد جاء الاتصال من القناة التلفازية فلم يكن أمامي للتعريف بنفسي تحت ضغط لجنة التّحكّم إلا أن أرمي أوّل اسم يخطر في بالي. اسمٌ كان وليدَ صُدفةٍ التصق بي في الأيام التي تلتْ بسرعة النار تنتشر في الهشيم. وفي لحظة عجلةٍ، تحوّلتُ من محمّد إلى هادي أينما كنت، عدا أسرتي الصغيرة. وبالتحديد، أصبحت هادي العبد الله.

كان أهلي دائماً هاجسي الأكبر من أوّل يوم خرجتُ فيه مع ركْب المحتجّين. ويومَ أصبح الموت مشهداً عادياً يخطف الأصدقاء واحداً تلو الآخر، أدركت أنّه على مسافة صفرٍ، وألّا حلّ إلا أن

أتقدّم باتّجاهه عاريَ الصّدر حيث لا يُجدي الرجوع. لكنّ النّظام كان يهدّد الناشطين بأهاليهم، ويعتقل الفتيات رهائن حتّى يُسلّم المطلوبون أنفسهم. ومن يحدث أن تبتلعه إحدى الزنازين، فقد يحدُث أيضاً أن... لا يعود. وهكذا، زادت الكوابيس كابوساً بأنْ يمسّهم أحد بأذى.

# أنتما مثقفان!

بداية الانشقاقات والعمل الثوري العسكري، كانت المظاهرات لا تزال محرِّكَ الثورة. يومياً، كنا نخرج في القصير لنهتف تعويضاً عن كلّ سنوات الصمت التي مضت، وكذلك فعل إخوتنا وأخواتنا في معظم المدن السورية. كلما جنّ الليل، كان الناس ينزلون إلى الساحات والطرقات كأنّهم أقمار في السماوات.

وفي إحدى المرات، كنت عند أحد الأصدقاء في أطراف القصير، وقررنا أن نبثّ المظاهرة مباشرة على أن يكون هو مسؤولاً عن ذلك. توجّهنا لنلتقي بصديقي الدكتور ياسين جمول، ثم انطلق صديقي برفقة صديقه على متن دراجة نارية لنلحق بهما أنا والدكتور ياسين على دراجة أخرى. لم تكن القصير حينها محررة بعد، وكان تواجد السلاح قد بدأ يشيع بين الناس حمايةً للمتظاهرين. أما الدراجات النارية فقد كانت الأنسب لتفادي الحواجز والهروب بخفّة في حال التعرض للملاحقة.

كنت أقود الدراجة وخلفي الدكتور حين هممنا بالمرور من منطقة آمنة، إنما قريبة قليلاً من فرع الأمن العسكري في القصير. وفجأة، تحت جنح الظلام كما في الأفلام، سمعنا صوت البنادق تُعدّ للإطلاق ورأينا فوهاتها تتجه إلينا من كل الاتجاهات. وإذ

بعناصر أمن عسكري مختبئين تحت الأشجار غطّاهم الليل فما انتبهنا لوجودهم. أمرونا أن نوقف الدراجة ونرفع أيدينا إلى أعلى فما كان من الدراجة إلا أن توقفت لوحدها لهول الصدمة، كان حاجزاً متنقلاً، وكادت أيدينا تلامس السماء.

أخذونا إلى فرع الأمن العسكري، جرّونا جرّاً إلى هناك. بالقوّة اقتادونا كما لو أننا نجرؤ بين فوهات بنادقهم على العصيان. كنت مرتدياً بذلةً رياضية، وفي جيب سترتها شريحة لشبكة ثريا ـ فضائي ـ وهاتف بشريحة لشبكة لبنانية كنت أقوم بأغلب اتصالاتي عبره حيث له خاصية تغيير الصوت، وهاتف سوري. وما يزيد الموضوع خطراً كان وجود ورقة أدون عليها الأحداث حتى أستذكرها عند إجراء المداخلات وأكون جاهزاً متى جاءني اتصال من أي قناة تلفزيونية.

قلتُ انتهى كل شيء. حانت لحظة الصفر. متى يضع أول عسكري يده في جيبي يكون قد وضع رقبتي ورقبة الدكتور ياسين على مقصلة الإعدام. هو الآخر كان معه محمول بشريحة لبنانية، لكنه لم يكن يستخدمه للمداخلات، بل كان للاستعمال عند الخطر. عرفت لحظتها كيف يتوقع المرء موته قبل لحظات، وسلّمت نفسي للنهاية حيث إن بابها قد فتح على مصراعيه.

أدخلونا إلى غرفة العقيد، مليئة بالعناصر السِّمان المتأهبين كما لو أنهم متّجهون إلى معركة، على رؤوسهم الضخمة الحليقة خوذات حماية، وعلى وجوههم شوارب مفتولة. كلمة واحدة يمكنها أن تختزل هوْل منظرهم: شبّيحة. أوقفونا في الوسط وأحاطوا بنا قبل أن يبدؤوا التحقيق. ما هي أسماؤنا؟ ماذا نعمل؟ ومع من؟ كانت الأسئلة تنهال على رأسينا بينما أحاول جاهداً أن أدخل يدي إلى جيبي حتى أُنزِلَ الورقة من خرق في الجيب، لكنني، كلما هممتُ

بفتح سحّابه، فوجئتُ بأحدهم وقد أعدَّ البندقية آمراً إياي أن أرفعَ يديّ. صرتُ أتظاهر بأنني ألعب بالسّحاب، لكنني فطنت أن أي حركة أخرى سوف تفضح محاولتي إخفاءَ شيء ما.

عرف العقيد أسماءنا ووظائفنا، وعلى أثر ذلك تحسّنت قليلاً نبرة صوته. قلّ السّباب والشّتم كوننا ندرّس في الجامعة، ولكننا بقينا قيْد التحقيق. في تلك الأثناء، وقع إطلاق نار في القصير فخرج بعض العناصر من الغرفة. كانوا خائفين من هجوم عليهم، لكنّ خروجهم قلّص التّوتّر السّائد بيننا. أخذ عنصرٌ بطاقاتنا الشّخصية وأجروا البحث الروتيني. قال العقيد: أنتما الاثنان تخرجان في المظاهرات، نفَينا ذلك، لكنه أصرّ مشيراً إلى تقارير بين يديه تثبت ما يقول. سكتنا. التقارير هي نقطة اللاعودة. قال: أنتما مثقّفان، من واجبكما أن تمارسا دوركما في التّوعية، لا أن تأخذوا البلد إلى الخراب! تابعنا صمتنا. قال: هاتا هواتفكم المحمولة. كلّما قلنا لا أسوءَ مما حصل، فوجئنا بمصيبة أكبر... كأنّنا عالقان في سرداب لا متنفس للنور في مداه...

أعطيته أولاً هاتفي السوري. فتحه ودخل مباشرة إلى الرسائل، وإذ برسالة من أحد الشباب في الجامعة يدعو لي فيها؛ «الله يحميك!».

«ليش بدو يقول الله يحميك!»، استنفر العقيد.

قلت له: «إننا ندرّس في حماه وهي مسافة سفر حيث يمكن أن نتعرض لأذى، لذا اعتدنا أن ندعو لبعض»... كان الشاب صاحب الرسالة من درعا، ولكنني أخفيت ذلك عنه حيث إن درعا كانت مشتعلة آنذاك.

خرج من الرسائل إلى مقاطع الفيديو. فتح أول مقطع وإذ به

أغنية لشهيد من القصير اسمه محمد مطر رحمه الله. حين التقت عيناه والصورة، وأذناه والصوت، استشاط غضباً وضرب بيده على الطاولة بعنف. «هذه الأغنية للمسلحين!!»، ضرب على الطاولة مرة أخرى. «لا أعرف لمن هي، وأعجبني لحنها لهذا احتفظت بها»... قال: «لا تكذب». قلتُ: «لا أكذب!»، وبين هات وخذ، وأكذب أو لا أكذب، وشتم وصراخ، غض النظر عن المقطع وأكمل البحث في الهاتف. في تلك الأثناء، كان موعد المداخلة على الهواء مباشرة قد أصبح وشيكاً. وشيكاً جداً.

الهاتف اللبناني لم يزل في جيب سترتي. وأنا خائف من أن يرن. في أيّ لحظة، قد يرن. لا أذكر إذا كانت المداخلة لقناة العربية أو الجزيرة. لكن رنة واحدة، أياً كانت، كانت ستعجل في موتنا لأنّ أرقام القنوات محفوظة في الهاتف بمسمياتها: عربية ١ ـ عربية ٢ ـ عربية ٣ ـ جزيرة ١ حتى الـ ٨، وصال ١ ـ وصال ٢... لم يكن هنالك مجال للهرب. أبداً. لكنه لما أخذ الهاتف السوري فرحت لاستبعاده وجود هاتف آخر معي. وفجأة، وصلت رسالة نصّيّة إلى الهاتف اللبناني فأضاء من داخل جيبي. قلتُ انتهى.

«ما هذا الذي أضاء؟»، قلت له: «هاتف محمول». قال: «لمَ لم تعطني إياه؟»، قلتُ: «لا أستعمله، لهذا لم أعطك إياه. أتركه احتياطاً». قال: «لمَ؟»، قلتُ: «حتى إذا احتجت الهاتف ولم تكن هنالك تغطية للشبكة أثناء انتقالنا بين اللاذقية وحمص، أستعمل الآخر».

قال: «هاتِ».

كان الموت يلوّح لي من الاتجاهات كافة لو ضغط العقيد على الزر في الوسط، فمن تحته تماماً زرّ يأخذه إلى أسماء القنوات، ومن

فوقه زرّ إلى قائمة الاتصالات. لكنّه عشوائياً وجد نفسه في الاستوديو الفارغ. من هناك إلى الرسائل، نظر نظرة قطّب إثرها حاجبيه ثم صرخ: «تتعامل مع الجزيرة!! تستعمل الإنكليزية!!». بلعت لُعابي، قلت: «سيدي هذه ليست الجزيرة. هذه رسالة من شركة الاتصالات أم تي أن». أومأ برأسه إلى عنصرٍ بجانبه فأتى وألقى نظرته، «أبو علي، هذه الرسالة صحيحة؟» أجابه: «صحيحة سيدي». لم يدرك أي منهما أنها من شركة ألفا اللبنانية، كان الله تعالى يقف بجانبنا مجدداً.

اقتنعوا بأن الهاتف سوري. لكنهم ظلوا يهددوننا ويحققون حتى حصل إطلاق نار مجدداً، فأخلوا سبيلنا لأن لديهم شيئاً أهم من التّحقيق معنا. نظرنا إلى بعضنا، أنا والدّكتور ياسين، غير مصدّقين. كانت الورقة لم تزل في جيبي، وهواتفنا أمامه على الطاولة. قلتُ: «هل لنا أن نأخذ الهواتف؟» فأومأ إيجاباً. أخذناها ومشينا حتى الدراجة النارية ثم لما ركبنا عليها شغّلتها بكلّ ما فيها من عزم حتى ابتعدنا كيلومتراً أو اثنين. أوقفتُ الدّراجة فاستغرب الدّكتور، أوضحتُ له أنني أريد أن أسجد سجدة شكر، قال: «تسجدُ في البيت، نَصِلُ أولاً إلى البيت وتفعل ما تريد!».

وصلنا بخير. كانت رحلة محفوفة بالموت، فيها كل شيء إلا هو. كان الشّباب قد افتقدونا وخافوا علينا إذ كانت موجة الانشقاقات قد بدأت والعمل المسلّح في بداياته. حكينا لهم ما حصل، فحمدوا الله أنهم لم يعلموا باحتجازنا. أي خطوة متهوّرة كانت ستسرّع في تصفيتِنا من غير بسملة.

# صراعُ النفس

تعلم؟ أحياناً أضحك من نفسي، كيف بدأ الأمر بمجرّد رسالة ثم تعدّاها إلى اتصالات مباشرة ثمّ إلى لقاءات بالصوت والصورة. من محمد، إلى عبد الرحمن، فسمير ثمّ الآن هادي. أربع شخوصٍ في حياةٍ ثقيلةٍ واحدةٍ، رتيبةٍ بكلّ ما فيها من صخب، وقاسيةٍ بكل ما يبدو فيها من زخمٍ وإنجاز. وفوق ذلك، آلامٌ تسكن ثمّ تفور، وندباتٌ لا تُمحى مهما استقدمت من أطباء مختصين بالتجميل. الندبة الحقيقية لا تُشفى... تبقى هنا داخلاً، في القلب.

* * *

بدأ هادي يكسب مصداقيّة على الأرض، وزادت علاقاته مع المحطات والفضائيات. وأقول هادي لأنه في البداية لم يكن أنا بل كان قناعاً ألبسه حين أجري اتّصالاً إخبارياً، وظلاً للصّوت المتحوّل الحنون الذي أحبّه الكثيرون وتأثّروا به وذرفوا الدموع عند توسّلاته للتدخّل هنا أو المساعدة هناك... بدءاً من أبي.

أنشأ هادي لنفسه حسابات خاصة على سكايب وفيسبوك باسمه الكامل، هادي العبد الله، وبدأ يستخدمها بتلقائيّة لأقلّ من سنة بقليل. ربّما تسعة أشهر. كنتُ أتّصل بالمحطات وأكلّمهم بصوتي،

محمد، ثمّ أنتقل إلى الهواء مباشرة بصوتِ هادي الناعم، الأقرب لصوت طفلٍ صغير. وفي هذه الفترة كان صوتُ هادي ينبعث من تلفاز بيتنا في الطابق السفلي فيَستقي منه والدي آخر الأخبار ويُعلِمني بها، بينما يجلس هادي في الطابق العلوي في غرفةٍ موصدة الباب تحرسها أمّي. كنتُ أسمع آراء الناس وأقرأ تعليقاتهم على وسائل التّواصل الاجتماعي، ولا يزيدني ذلك إلا صمتاً.

اختلطت عليّ المشاعر آنذاك، تارة أفرح لمحبّة الناس، وتأثّرهم برسائلي، وأطواراً أتألّم لإخفائي الأمر عن والدي وإخوتي، ولو أنّ الأمر كان ممكناً لما أعلمت حتى أمي بكوني هادي لخطورة تسرّب الخبر. زاد الطين بلّة انتشار حواجز النظام بين المناطق كي تحُول دون التجمّعات الكبيرة، فاضطر المتظاهرون إلى الخروج كُلٌّ في منطقته. وكان عدم خروجي معهم أعلى درجات التّخاذل بالنّسبة إلى والدي.

# الاعتراف

لمّا تحرّرت بعض المناطق السورية وأصبحت تحت إمرة الجيش الحر، بدأت الضغوط لأعرّف عن نفسي بوضوح؛ فلا يُعقل أن يبرز النّاشطون والأطبّاء والضّبّاط المنشقّون أنفسهم للإعلام، ثمّ يبقى هادي مستتراً بصوتٍ طفل. وبدأت قناة دنيا وقناة الإخبارية السّورية بعرض تقارير تروّج لكون هادي العبد الله شخصية وهمية اختلقتها قناة الجزيرة، وعن كونه صحافياً مقيماً في قطر، يستحيل عليه نقل المجازر من بابا عمرو وكرم الزيتون وغيرها. وبرز السّؤال الأكبر، لمَ لا يظهر على حقيقته، بالصّوت والصّورة!

على خط التّماس من جديد. هل أبرُزُ للناس بالصوت والصورة أم لا؟ ما الذي قد يحدث لأهلي وأقربائي إن فعلت؟ قلتُ أترك لهم القرار، حيث إنّهم المتضرّر الأكبر من أيّ فعلٍ قد أقوم به، وأي قرار قد أتّخذه. هكذا، كان عليّ أن أتوجّه إلى والدي وأخبره.

بينما كنتُ أفكّر كيف أُطلعه على حقيقة هادي، كان يعتريني شعورٌ بالعقوق. كيف لولد أن يخفي أمراً كهذا عن والده، وهو يراه جالساً قبالة التّلفاز، يسمعه من خلاله ويدعو له كلّما دعا على الظالمين؟ ثمّ أردّ على نفسي بأنّ السّرية مطلوبة من أجلِه قبل أن تكون من أجلي، فلا يكون في خطر إن حدث أن اعتُقل أو زلّ لسانه بكلمة.

*ـ بابا، أنا هادي.*

*ـ هادي؟ قصدك محمد.*

*ـ لا قصدي هادي،*

*ـ . . . !*

*ـ هادي العبد الله. هذا اللي عم تسمعه عالتلفزيون والإذاعة هو أنا . . .*

*ـ بس صوته . . .*

*ـ صوته معدّل . . . هادي هو أنا.*

اعترفت له.

فرح كثيراً، أحسّ بالفخر، بخليط من السعادة والفخر. وبقدر سعادته بكوني هادي، كان سعيداً باطّلاعه على السر، وكنتُ سعيداً بأنّ ثقل السّرّ قد تلاشى. حكيتُ له ما حصل بالتفصيل منذ البداية وصولاً إلى الضّغط الذي يُمَارسُ عليّ حتى أظهر بالصوت والصورة. شرحت له أنّه وبقية العائلة سيكونون في خطر إن أظهرت نفسي، وأنّ البيت قد يُقصف، وأنّهم سيصبحون عرضة للاعتقالات أكثر مما مضى، خاصة أنني مطلوب للنظام الأسدي. وعلى الرغم من كلّ ما ذكرت، كانت الحماسة ما تزال بادية على وجهه ووجوه البقية، وكأنّما سرّي هذا قد غفر لي تخلّفي عن بعض المظاهرات عند والدي، حيث كان دائماً يردد: «اللي عم يطلعوا ما أحسن منكم»، بينما كنت أتابع أخبار المظاهرات في باقي المناطق في حمص.

* * *

# المواجهة

## القصير، ١٢ نيسان/ أبريل ٢٠١٢

*- السلام عليكم. نعم أختي الكريمة أنا هادي العبد الله الناطق باسم الهيئة العامة للثورة السورية. أنا كنت مضطراً إلى أن أغير صوتي قليلاً أو أعالج صوتي قليلاً خوفاً على حياة أهلي. كلنا نعلم أن هذا النظام نظام مجرم، وهو ينتقم من أهل أو ذوي الناشطين إذا لم يستطع الوصول إليهم. الآن اطمأننت إلى أن أهلي استطاعوا الوصول إلى خارج البلاد، لذلك خرجت بالصوت والصورة.*

*- يعني اليوم لا تخشى على نفسك، هادي؟*

*- أختي الكريمة، نحن ننتظر الشهادة بدايةً كما ننتظر النصر. لا بد من أن يفهم كل العالم أن الشعب السوري كُسر تماماً حاجز الخوف عنده. نحن لم نعد نخشى على أنفسنا. أنا منذ أكثر من ستة أشهر مشرد لا أرى أهلي، أنتقل من حي إلى آخر[1]...*

كانت بداية جديدة اشترطتُ فيها الإعلان أوّلَ الأمر عن نزوح أهلي إلى الأردن لإبعادهم عن الصورة الإجمالية، وكي لا يفكّر

(١) <https://www.youtube.com/watch?v=dHkR5umpuvE>.

النظام في إيذائهم. وبالفعل، صدّق النظام هذا الأمر مع أنّهم في الواقع لم يبرحوا أماكنهم.

منذ ذلك الحين، تحوّل الأمر من مداخلات صوتية إلى تقارير ميدانية وتغطيات خاصّة. وإبّان هذا، زادت المصداقية أضعافاً عند المشككين، وزاد معها العبء والمسؤولية.

إذا كان النظام قد أراد إخماد صوت سمير من قبل، ونجح في ذلك، فلم يكن ليفوّت فرصة القضاء على هادي إذ بيده الآن الصّوت والصّورة. أصبحتُ أكثر عرضة للاستهداف، خصوصاً مع تأثيري الملحوظ في الرأي العام قبل ظهوري العلني، وإثبات وجودي في الميدان تحت القصف إلى جانب المصابين بعده. وفُضُول المعارضين المتابعين للشّأن السّوري والمُغرضين المشككين بحقيقة تواجدي في سوريا، حوّلَ الصحافي المجهول عرّضُه للخطر وجعله تحت نيران النظام.

ولمّا كنت قد نبّهت والديّ من الخطر المحدق، وأعلنت نزوحهم إلى الأردن، كان يجب أن أبتعد عن المنزل حتى لا أثير الشّكوك حول تواجدهم في القصير وصِلتي بهم، فاكتفيتُ بالسلام عليهم مرّة كل عدّة أيام.

في تلك الفترة كان العدوّ الوحيد هو النّظام الحاكم. لا أعداء داخليين آخرين، لكنّه كان يقوم بدوره كعدوّ على أكمل وجهٍ مشكّلاً مصدر قلقٍ حقيقياً لغالبية الشعب. ففي لحظة، تصبح حياتُكَ الأقَلَّ أهمّية إن ما قورنت بحياة من تحبّ، ويصبح الموت أمنيتك لغيرك كي لا تطالهم ألْسِنَةُ العذاب. يصبح الألم الأقلَّ مرارةً حين يحضرُ وخزُ الضّمير.

في أواخر عام ٢٠١١، اعتُقل عمّي حمزة، وهو الأقرب منّي

سنّاً ما جعلنا مقرّبين جداً. لم نعرف عنه شيئاً بعد ذلك... لا حيّاً ولا ميتاً... وحين كنت أرى جدتي أوّلَ اختفائه، كانت تسألني بإلحاح عنه، وعمّا إذا عرفنا شيئاً عن مكانه... لم يكن بوسعي إلا أن أبكي عجزي، وأطبعَهُ حسرةً جديدة في قلبي.

بيت الجدّ، وما أدراك ما هو. قلّة هم من لا يشعرون بحنان الجدّين، ومحرومون. في الأيام الأولى من حياتي، وكذا السّنوات الأولى، كنت أقضي أكثر وقتي عندهما. هذا الأمر زاد تعلقي بهم كما لو أنّني تلقّيت تربيتي على أيديهما، وجعلني مجنوناً هائماً بهما بشكلٍ ملحوظ. كانت جدتي تدللني كثيراً، فتزيد من خوفي عليها. ولعلّ الحرب والكِبَر سيفان يقضّان مضجع كلّ مُحِبّ، فكنت أمرّ عليها وجدّي كل عدة أيام، وبجعبتي مقياسا الضّغط والسّكر لأتفقّد أحوالهما. وقد كنت مسؤولاً عنهما صحيّاً بحكم دراستي للتّمريض، فأحضر لهما ما يحتاجان إليه من الأدوية والحاجيّات. إلا أنّ أسوأ جزءٍ هو حين كنت أرى خوفهما من القصف... ومع أن القصف حين يحضر لا يميز شاباً من عجوز، فإنّه إن أراد القتل أو الكسر أو الإصابة فإنّ شيئاً لن يختلف باختلاف سنّ المصاب، ومع أنّ طعم الموت واحد، إلا أن الكبير في السّنّ له نظرته المتفرّدة لهذا الشّكل من أشكال المنيّة.

في خضمّ المشاعر الكثيرة المتخبّطة بين الخوف والعجز، كان جدّاي يحاولان قدر الإمكان إشعاري بأنّهما فخوران بي، خاصّة عندما كان جدّي يسمعني على إذاعة مونتي كارلو أو بي بي سي، أو يشاهدني على شاشة التّلفاز. وإن حدّثهما أحد عنّي كانت فرحتهما تزيد أضعافاً فيرفعان من همّتي ويشجّعانني على المُضي قُدماً حتى لو كانت الطّريق ذات اتجاه واحد لا عودة منه.

# في الجنة، تحت النار

في القصير، كان جلّ وقتي في العمل الثوري والإعلامي محاولةً من ضمن محاولات عديدة لتوحيد الفصائل العسكريّة، وكانت تساعدني علاقتي الجيدة مع جميع الأطراف. وعلى الطّرف الآخر كانت محاولتي للتّنسيق بين واجباتي تجاه أهلي وأقاربي، وعملي.

* * *

## القْصَيْر

كلمة تختصر وجعاً؟ وطناً؟ حياة! ماذا أخبرك عن طرقاتها التي فاضت بالذكريات وقد سُدّت المجاري في وجهها فغطّت بمرارتها البساتين الكثيفة التي يغذّيها نهر العاصي؟

تسألني إن كانت مدينةً، سأقول لك. هي ريفٌ ومدينةٌ، وفوق ذلك كله حديقة وبيت. ريفُها خمس وثمانون قريةً تتبع للقصيرِ ـ المدينة. وأما المدينة فبساتين تملأ جزءها **الأول**؛ تفاح ومشمش وكرز ولوز وغيرها من الفاكهة. وأما **الثاني**، فبيوت من طابق أو اثنين تنتشر على رقعتها، يتخلّلها القليل من الأبنية المرتفعة عن تلك. فيها سوقٌ رئيس يشبع ديمغرافيتها، وساعة مرتفعة عند الدُوّار، في

ساحة السّاعة التي سمّيت لاحقاً بساحة السّيدة عائشة، حيث كان قلب الثّورة ينبض في لحظاته الأولى في الحياة. وأما الشّوارع، فلا واسعةٌ يضيع فيها المحبون، ولا ضيقةٌ تخنق وُدّهم. وأمّا البيت الأكبر، فشعورٌ تذوّقَه كلّ من كان يسكن القصير، ولم يعد.

كنت أسكن مع أخي شادي حياً شعبياً في شقّة لابن عمي، حيث لم يكن يقطنها أحد. وفيها استقْبَلنا أحياناً بعض الأصدقاء والمقرّبين وخاصّة طراد الذي كان غالباً إلى جانبنا. وكون حركة شادي أيسَرَ أمنياً، كان يهتم باللوجستيات؛ يحضر ما نحتاج إليه، ويقود السّيارة إذا توجهنا إلى مكان ما. بقي شقيقي الذي يصغرني بثلاث سنوات معي إلى أن حصل نقص في المقاتلين فتوجه إليهم وانخرط في صفوفهم أوائل معركة القصير.

كنت أعود إلى الشّقّة بعد أن أنهي أشغالي في المركز الإعلامي في القصير؛ المركزِ الذي كان يضم خمسة أو ستة أشخاص، من بينهم المصورون كمهند ـ رَحِمَهُ اللهُ ـ وطراد، والمنتجون كجعفر أبو حبيب وفادي بإدارة أبو شمسو. وبين الشّقّة والمركز ومسارح الأحداث، كان احتمال استهدافي أمراً متوقّعاً نظراً إلى نشاطي الإعلامي المكثّف.

في الشّقّة المحاذية لحيث أسكن، كان يسكن ابن عمي الآخر مع زوجته وأبنائه الأربعة. كل يومين تقريباً كان يزورني الأصغران، رهف وسعد. يطلّان من الباب كأنّهما على موعد مع الفرح؛ بسماتٌ تُذهب عن المهموم همّه، وتزيل عن المغموم كربه. هل ذكرتُ أنّهما أقرب للملائكة التي تَنَزّلُ على المرء لتهوّن المسير؟ كانت ضحكاتهما تنطلق فتُعكّر وحشة الشّقّة، كأنّها حصيات تهزّ سطح الماء فتبقى ترددتها برهةً بعد أن تغور. يدخلان كالدّاخليْن إلى منزلهما، ثمّ

يتبعهما والدهما حيث يغلبانه في الشّوق للوصول. أمّا أنا، فكنت أُعِدّ لهما مسبقاً البسكويت وما يتوفّر من السّكاكر حتى إذا ما باغتاني بزيارة مستعجلة لم أخيّب ظنّهما. وفوق هذا، كانت آلة التّصوير تحفر صورنا معاً في محاولة للإمساك باللحظات الجميلة.

في يوم من الأيام، بينما كنت في الشقة كالمعتاد، سمعتُ صوتاً مدويّاً، فخرجت إلى السّطح لأتبيّن الوضع وفي نيّتي إعداد آلة التصوير حتى أوثّق ما يتيسّر لي من الحدث مباشرة. وقبل أن أباشر في تشغيلها، بغمضة عين، قبل أن أرفع رأسي لأضع هدفَ القصفِ نُصبَ عين الكاميرا، هبّت عاصفة من جانبي ورمتني نتيجة الضغط القوي. كانت صورةُ هدفِ الطائرةِ قريبة جداً؛ المنزل المحاذي تماماً لمنزلي سُوّي بالأرض.

ملأ الدخان المكان. الصّورةُ الضبابية المعتادة بعد كل انفجار. قُصِفت شقّة ابن عمي التي في الجوار، ومعها تهدّم جزء من الشّقّة التي كنت أسكن. صاروخ فراغيّ ضخم سوّى المنزل بالأرض، وصفعني مؤدياً إلى نزيف حادٍ في أنفي. أفلتُّ آلة التصوير، وانشغلت بالدّماء والضباب. وبحكم خبرتي في التّمريض، توقعت أنّ شرايينَي الأنفية قد انفجرت إثر ضغط الانفجار، فوضعت قماشاً في أنفي كي أوقف النّزيف بشكل مبدئي ريثما أصل إلى المشفى.

لمّا وضعت الطائرة أحمالها، توجّهت الصَواريخ مباشرة إلى بيت ابن عمّي الثّاني فيما أُصيبَ جزء من الشّقّة التي أسكن، وتناثر زجاج النّوافذ نتيجةَ الضّغط فلم تعد صالحة للسّكن. أمّا المنازل المجاورة للمنطقة المستهدفة، وقاطنوها، والمارّون فقد نالوا نصيبهم من الشّظايا، وحيث كان المسعفون ينقلونهم إلى المشفى، توجهتُ معهم لإجراء التّدبير اللازم حتى أعود وأستتبع العمل. وبعد إيقاف

النزيف، برز السؤال الأهم؛ ماذا عن ابن عمّي وزوجته وأبنائه؟!

أطلّ ابن عمي من بعيد فتنفسّت الصّعداء. قلتُ: هذا أول الغيث. ثمّ حين سألَ عن عائلته، توّقعنا أن يكونوا قد توجهوا إلى أحد الأقبية هرباً من القصف، فتوجّه من فوره إلى هناك.

وما أسوأ من الانتظار إلا عودةُ المتنَظِر فارغَ الأيدي.

سُدىً كان بحثه.

عاد وأخبرني أنّ ولديه الأكبرين عند جدّيهما، ويتوقّع وجود الباقين في منطقة البساتين؛ إذ لم يجدهم في الأقبية. بعد نحو ساعة من البحث الجنوني والانتقال من بقعة إلى أخرى، نركض ونهرول ونسأل، سألنا الأهل والجيران، ثمّ في النهاية عاد إلى المنزل ليرى حجم الدمار. وبينما اقترب من الرّكام، كانت الصّورة قد بدأت تنجلي، لكنّه كلّما اقترب، كان يُخيّل إليه أنّ صوتاً يتناهى إلى مسمعه، رويداً رويداً أحسّ بالفاجعة كأنّ آثار الصدمة تنقشع، وحقيقة الوضع تتّضح. المنزل مدمّر بشكل كامل وثلاثة من أفراد العائلة تحت حجارته، مدفونون وهم أحياء. لا إجابة أخرى.

من أين نبدأ؟ أي حجرٍ نرفع أولاً؟ وأيّ حائط يسرّعُ رفعُه إنقاذ الضحايا؟ لكن في السّباق مع الموت لا مكان للأسئلة. مع كلّ الحيرة التي تملّكت كلّاً منّا، وعلى بشاعة القرار، إلا أنّ الضّرورة فرَضَت على سواعدنا أن تمتدّ إلى أيّ شيءٍ على أن تبقى معلّقة في الهواء. لم تكن فِرق الدّفاع المدني في تلك الفترة موجودة، لكن فرقاً بديلة للإنقاذ كانت وليدةَ الحاجةِ إليها. وبينما توجّهت إلينا حفّارةٌ تابعة لإحدى الفرق، تم استهدافها بقذيفة مدفعية سلَبَتها القدرة على التّقدّم. لمّا تأخّرَتْ اتّصلنا بالمسؤولين عنها فأعلمونا بما حصل، كأنّما حجبوا عن قلوبنا بصيص أمل. وبعد التّفكير والتّواصل

مع هذا وذاك، حصلنا على رقم صاحب حفارة أخرى، وطلبنا منه المجيء بها. هذه المرة، استُهدِفت الحفارة فتعطّلت، وأصيب فوقَ ذلك سائقها.

لم يبقَ حلٌّ آخر. نحفر بأيدينا.

مستعينة بالأدوات البدائية، كانت سواعدنا كلها تغرف في الركام كالعَطِشِ ينهل من الماء، لكنّ شيئاً لم يكن ليروِيَنا قبل أن نخرج الطّفلين وأمّهما. طراد كان يحفر معنا تارة ثم ينتقل للتّصوير مرّة أخرى، أمّا أنفي، فلم يلائمه بذل الجُهد في وضعه ذاك، فعاد ينزف من جديد. كانت حاجتي إلى رؤيتهم جميعاً أحياء أكثر أهمّية.

بعد ساعة ونصف من العمل، تقريباً، أطلّت رهف باهتةً من تحت الرّكام، وقد استنفدت كلّ أنفاسها قبل أن نصل إليها. وعلى الرّغم من ذلك، أخذناها إلى المشفى؛ كان جسدها الصغير خالياً من جراحٍ قد تُكلّفُ طفلةً حياتها، لكنّه لم يستجب لنداءاتنا ولم يَرِقَّ قلبها لدموعنا. آثرت الرّحيل بأقلّ خسائر ممكنة، من وسط منزلها، بينما تتشبّث ذراعاها بساق أمّها حيث لم يكن بمقدورها أن تطال غيرها، وأمّا يدا سعد، في الجهة الأخرى، فلم تطيلا الشدّ كثيراً قبل أن ترتخيا. لم يترك سعد أخته ترحل وحيدة بعد أن حاصرتهما معاً وحشة الركام.

بعد ذلك انتُشِلت أمّهما.

# في أحشاء المنزل

فجأةً، من حيث لا تدري، أطبقت عليها السماء. لا أحد يدري كم يؤلم الأمر حتى ينقلب المجاز حقيقة، ويخرج المعنى من المصطلح إلى الواقع. نزل سقف المنزل عليها وعلى الطفلين كأنّه السّماء، وضاقت بهم الأرض كأنّ شللاً غزا الدّار. يصعب فهم ما يحصل في الدّقائق الأولى على الرغم من التّوقعات الدّائمة للقصف وسماع صوت الطّائرة قبل الفاجعة بقليل. خنق الدّخان أنفاسهم وجثمت الحجارة على صدورهم وأطرافهم بينما اسودّت الصّورة خلا خيوط ضوء باهتة تسرّبت من حيث لا يدرون. كانت تشعر بأيدي الولدين متشبّثة بساقيها، كانا يضغطان بكفّيهما في محاولة لانتزاع فرصة أخيرة للحياة، لكنّ ذلك لم يكن ليكون أوكسيجيناً. بقي سعد على هذه الحالة ما يقارب العشرين دقيقة، وصمدت رهف بعده عشر دقائق لا أكثر. لم تستطع الأم أن تفتح فمها للكلام، تمنّت لو أنّ لها قدرة على محادثتهما، وإن لم يكونا ليستطيعا الرّدّ. كانت لتقولَ لهما إنها بجانبهما، وإنّ كلّ شيء سيكون بخير. ثمّ لصرخت لأحدٍ كي يلحق بأنفاسهما السّاخنة قبل أن تذوي، وبنبضات قلبيهما قبل أن تخفت، لكنها لم تستطع، ولم يفعلوا.

لدى الأطفال، تتمثل صورة مثالية عن الأم، أنّ لديها الإجابة

عن كل سؤال، والحلّ لكل مشكلة، لكن هناك بالذات انجلت حقيقتها عاريةً أمامهما. لم تمتلك إلا بضعة أنفاس متثاقلةٍ خطفتها من فتحةٍ أخطأها الركام، ولم تملك أن تتقاسمها مع أيٍّ من سعد أو رهف، بل إنها لم تكن أكثر من جدارٍ تقوّضَ هو الآخَر إثر الضّربة فلم يكن لهما أكثرَ من مَسنَدٍ أخير لا يسمن ولا يغني من جوع. كانت تملأ جسدها الكسور والرّضوض، بينما يُثقَبُ قلبها بالفقد إلى الأبد.

# غريب في ديارنا

يومَ بدأت القصير تتحوّل إلى ثكنة عسكرية كبيرة، كان لا بد لرجالها الثائرين من أن ينتفضوا حيث يرون الأحياء تُعزل عن بعضها، ثمَّ القلاعَ الضخمة تبنى لتَعزُلَ القصير ـ المدينة عن البساتين. توزّعت الحواجز حولها في محاولة لحبس أنفاسها، لكنّ ذلك عاد بمفعول عكسيّ فأثرى وقود الثّورة وعزّز صِدق نوايا الثّوار... لا بد من أن يفكّ القيد بعد إذ استحكمت حلقات الصّبر.

بينما كنتُ وطراد نغطّي المعارك إعلامياً، بدأ الثّوار بمحاولة تطهير المنطقة وتخليصها من طوق النظام الخانق بالاستيلاء بدءاً على الحواجز التي تفصل الأحياء عن بعضها أوّلاً، وانتهاءً بالحواجز التي تفصل المدينة عن البساتين والتي تتطلب جهداً عسكرياً ضخماً. وعلى الرّغم من صعوبة المهمة، وصل الثّوار إلى مبتغاهم.

ثم حان دور القرى، قرى القصير. انطلق الثوار بهمّة المنتصرين فحرّروا الحواجز التي في القرى والثّكنات العسكرية الضّخمة، أبرزها ثكنة التّلّ العسكريّة، وكتيبة المدفعيّة في ريف القصير، بعد ذلك جعلوا مطار الضّبعة العسكريّ هدفهم وحرّروه.

كلّ تلك الخطوات كانت السّابقة في سلّم أهداف الثوّار؛ حيث

كانوا يطمحون إلى الوصول إلى حمص المدينة بسلاحهم الثقيل ويدخلونها محرِّرين. وقد كانت الخطّة المرسومة تُتَّبع بحذافيرها ممّا زاد الأمل بتحرير كامل حمص على أيدي الثوار، خاصّة أنّ معدّاتهم الثقيلة من مدفعية ودبابات كانت تزيد كلّما تقدّموا خطوة. لمّا صار الهدف نُصبَ أعينهم، ولّى الثّوار قلوبهم تجاه حمص، وهمّوا بخوض المعركة الحاسمة. كانت تفصلهم عن هدفهم قطعة عسكرية واحدة، هي رحبة *قطينة*، فإذا قُدِّر لهم أن يتجاوزوها يهون كلّ عسيرٍ ويصبح حصار حمص في خبر كان. استعدّت أحياؤها ليومها الكبير، واستعدّ الثّوّار للتحرير.

توجّه الثّوار نحو الشّمال سيلاً جارفاً، سلاحهم «اللهمّ سدّد رمينا». لم يكونوا بحاجة إلى الكثير من الوقت حتى ينجزوا المهمة؛ حيث كانت تجهيزاتهم العسكرية كلّها منصبّة على هدف واحد؛ رحبة *قطينة*. في هذه الأثناء، كان النظام الأسديّ يخسر تباعاً سيطرته على الحواجز وعلى تجهيزاتٍ عسكريّة قيّمة. وكان جلّ الاستشراف يؤدّي إلى نتيجة واحدة، الفوز الجديد للثوار، ولكن بثمرة أكبر هذه المرة: كُلُّ حمص. لم يسدل النظام ذراعيه وينتظر، بل شرّعهما لشراكة مع حزب الله اللبناني، جنوباً وغرباً، تنتشله من الضيق المُلِمِّ به.

بدأ تقدّم حزب الله نحو القرى في ريف القصير، ما ولّد ضغطاً كبيراً على الثوار إذ حوصروا من خلفهم، فاضطروا مُكرَهين إلى إيقاف معركة حمص والعودة إلى مواجهة الحزب والدفاع عن الأراضي المحررة لاستعادتها من بين أيديهم. هنالك حمِيَ الوطيس، واشتدت المعركة، كلّ طرفٍ يقاتل باسم الله، لكنّ الله أعلم بالظالمين. استمرت المعركة لأسابيع، مزّق أجواءها التّمهيد الجوّي العنيف من قبل النّظام الأسدي يعاضده جنود حزب الله على الأرض مستشرسين في القتال عن عقيدةٍ مفادها أنّ قتالَهم ضد الثوار جهادٌ

ثوابه الجنّة. إبّان ذلك، كنتُ وطراد ننقل الصّورة بالتّفصيل إلى الرأي العام، لكن كثيراً من القنوات الفضائية لم تصدّق مشاركة مقاتلي حزب الله في الاشتباكات؛ إذ جاء الخبر نقلاً عن مقاتلي الجيش الحر في القرى... بل وطلبوا أدلة على كلامنا من وثائق أو مقاتلين أو أسرى، من دون أن يقنعهم سماعنا لأصوات مقاتلي الحزب يتحدثون باللهجة اللبنانية عبر اللاسلكي. هذا الأمر جعلنا نفكر ملياً في كيفية الوصول إلى دليلٍ فصْلٍ.

كانت المعارك أشبه بملاحم، وقتلى الحزب كما شهداء الثّوار كُثُر. استطاع أحد مقاتلي الجيش الحر أن يسحب جثة أحد قياديي الحزب ما شجّعنا على إثبات صدقنا وإعلان حزب الله منظمةً إرهابية وكسب تأييد المجتمع الدولي. سُحبت الجثة وصوّرتُها للتوثيق. وبطريقة ما، علمنا أن اسم صاحبها هو «أبو علي رضا»، فتواصل أحد الشباب مع أهله من هاتفه المحمول اللبناني حيث تغطي شبكة الهاتف اللبنانية مدينة القصير. تظاهر الشاب أنّه من الجيش السوري، وأن صاحب الهاتف جريح، وقمت بتصوير ذلك كلّه من دون أن أبثّه. بعد ذلك، صوّر لنا أحد الشباب في لبنان ورقة تنعى قيادياً في حزب الله مذكور بها اسمه الثلاثي، ولقبه؛ أبو علي رضا. كان هذا التّفصيل الصغير ما ينقص الفيديو للبث، وبذا اكتمل المطلوب.

كان هاتف المقاتل المحمول ما يزال معي، فبدأ أناس مقربون من حزب الله، منهم دكتور من آل زعيتر، يتصلون للتفاوض معي كي لا أعرض الجثة على الإعلام. رفضت بالتأكيد، وطلبت ألا يحاولوا إقناعي مجدداً. كان الذي يكلمني يحاول أن يظهر على أنه مستقل حيادي، لكنه في الواقع مع حزب الله. وبينما أتلقى الاتصالات، كان طراد يصور كل المفاوضات حتى تزيد أدلّتنا ونستعد بها للمستقبل. عرضوا عليّ الوصول إلى صيغة تفاهم مقابل أي مبلغ

مالي أطلبه، ثم حين فشلوا عرضوا تأمين تأشيرات سفر لي ولطراد ولأهالينا إلى أي وجهة نريد. وبعد ذلك حاولوا إغرائي بشيك مفتوح الرصيد، لكن ذلك زاد من إصرارنا. تيقّنّا حينها أن الفيديو مؤذٍ لهم، وبشدة. ولمّا يئسوا بالترغيب، انتقل المفاوضون إلى الترهيب. قالوا: نعرف اسمك وبيتك وعائلتك، ويمكن لمقاتلي الحزب أن يؤذوك.

رغماً عن أنوفهم، لم نستسلم.

بطبيعة الحال، كان الحزب ينكر وجوده هناك بشكل مستمر حتى أثناء قتاله الجيشَ الحر في القصير. ثم بُثَّ الفيديو. صورة لورقة النعي وللجثة كانا ضابطيْ صدقٍ يؤكدان أقوالنا. عرضت الفيديو وكالاتٌ عربية وعالمية كأول دليل ملموس على وجود حزب الله في سوريا. هذا الأمر اضطر «حسن نصر الله»[1] إلى البروز إلى الإعلام وإقرار وجود الحزب على أرضنا، وزاد على ذلك أن إن كان مقاتلوه ألفاً عندنا، فسيزيدون إلى ألفين، وأنّه وقيادات الحزب مستعدون للقتال شخصياً إن اضطرهم الأمر إلى ذلك.

---

(٢) الأمين العام لحزب الله اللبناني.

# الناجي الوحيد

لمّا اشتدّ حصار القصير، وحلّ القصف الشديد مكان الغيْم، واستأسد الثوّار دفاعاً عنّا، بدأ عدد الجرحى بالازدياد. حوصر المكان وقلّت الأدوية، ولم يعد بالإمكان إسعاف المصابين ولا إخراجهم من المدينة للعلاج. كان عدد الإصابات يتراوح بين الثلاثين والأربعين جريحاً يومياً، ما استلزم تهريب أصحاب الإصابات الخطرة لمحاولة إنقاذهم، لكن ذلك كان يفشل في أغلب الأحيان لاضطرارهم إلى العبور بين القطع العسكرية؛ ثمّ تعدّى الشحُّ المستلزمات الطبية ليصل إلى المواد الغذائية؛ بدأ الطحين والخبز ينقصان تباعاً، وبدأت البضاعة في المستودعات تنفد واضعةً العائلات تحت رحمة الإمدادات التي أصبح وصولها ضرباً من ضروب الخيال.

أخّر كونُ القصير منطقةً زراعية شبح المجاعة قليلاً، الأمر الذي دفع نقصَ المستلزمات الطبية إلى الواجهة، فكانت محاولات عديدة لإدخال الأدوية لكن الألغام كانت بالمرصاد. وكذا الجرحى الذين حاولنا إخراجهم، تلقّت الألغامُ سياراتِهم فانقلبوا شهداء ولم نقدر على سحبهم. كنّا نرمي بذلك أوراقنا الأخيرة، لكنّها كانت تحترق قبل أن تبتعد كثيراً. وضع الحصار المسعفين والأطباء في المشفى

الميداني تحت ضغط مضاعف، حتى كادوا لا ينامون. أصبحت التّفاصيل أشدّ إيلاماً، فيما تحوّلت القصير إلى مأساة إنسانية لا يتجاوز صدى أنّاتها أسوار الحصار. حينها، أصبح المخرج الوحيد، والأوسع، للخروج من المدينة هو الصعود إلى السماء...

قبيل الحصار بقليل، تم تحويل أحد المباني إلى مشفى ميداني، كان الوحيد من نوعه في القصير، وفيه تجمّع كل الأطباء المتواجدين ضمن المنطقة المحاصرة وبدؤوا من فورهم بعمليات الإسعاف. إبّان ذلك، كنت أحاول توثيق حياة الناس في الأقبية، أعدّ الجراح والنكبات والجبهات. أنتقل من مكان إلى آخر في محاولة لجمع أجزاء الصورة المنكوبة. كان الحصار مُحكَماً بحيث جعل القصف الثوارَ يعانون من نقص في المقاتلين يوماً إثر يوم، فاستشارني أخي شادي حول انضمامه إليهم حيث كان على معرفة باستخدام السلاح، ووافقته الأمر، بعد أن سبقه إلى ذلك أخي الأصغر منذر.

كنتُ أصوّر مع طراد ذات يوم في جبهة القتال، وبينما نحن عائدان إلى المنزل اقترح أن نمرّ على المشفى. بدايةً حاولتُ ثَنْيَه عن قراره، ثمّ رضخت له... حين وصلنا إلى هناك، تفاجأت بشادي مصاباً بين المصابين. كانت قد سقطت بالقرب منه قذيفة أطلقها مقاتلو حزب الله، توزعت شظاياها في أنحاء جسده من الرقبة حتى أخمص القدمين مُحدِثةً إصابات وكسوراً في قدميه وساقيه وأخرى خطيرة في بطنه. ذاهلاً، لم يكن مني إلا أن بدأت أبكي وأحرّك لساني بالدّعاء له، أمسكت بيده كمن يحاول منعه من الموت وصولاً إلى غرفة العمليات، دخل وقلبي عليه، أو ربما على نفسي؛ فالموت لا يوجع الأموات، بل يقضم الأمل من حصّة الباقين.

اضطررت يومها إلى أن أعود إلى الجبهة لنتابع التصوير. لمّا

رجعتُ كان قد أخرج من المشفى، لكن حالته كانت سيئة وتستدعي خروجه من القصير في أقصى سرعة ممكنة. بعد يوم أو اثنين، عاد أنفي ينزف، ذهبت إلى المشفى لأستفسر عن السبب وأتلقى العلاج، وإذ بالناس يتهامسون من حولي؛ كانوا يتحدثون عن رصاصتين أصابتا منذر، أخي الذي يصغرني بتسع سنوات، في بطنه. كيف لرصاصتين بحجم الأصبع أن تهدّدا جسداً مثل ذاك؟ وكأنّ الرصاص يشمّ رائحته فيتودّد إليه ليستقرّ في لحمه، في يد منذر، استقرت رصاصةٌ أيامَ المظاهرات السلمية ما جعله يبقى تحت المعالجة في لبنان فترة طويلة لم تنجح في إعادة يده كما كانت... والآن يجيء دور بطنه.

كيف حدث ذلك؟! لا أكاد أغمض عيني إلا وأفتحهما على مصيبة... قالوا إنه كان مع أصدقائه من الشباب، يحاولون إيصال مواد غذائية إلى بلدة *الجوسيّة* المحاصرة في ريف القصير. عند محاولة الدفعة الأولى منهم العبورَ من جانب أحد الحواجز، أطلِقت النار عليهم وأصيبوا. تقدّم منذر ليساعد في سحب الجرحى فأطلقوا الرصاص عليه هو أيضاً محدثين ضرراً بالغاً في أمعائه. لمّا أُحضِر إلى المشفى كان وضعه سيئاً جداً، هو الآخر. وبسبب تدهور الوضع في المشفى الميداني، زادت حالته سوءاً إثرَ خطأ في العملية الجراحية.

أحشاء تالفة، وحالة أخرى تستلزم الخروج من المنطقة للعلاج. وبقيتُ الوحيدَ، بين شقيقيَّ، غيرَ مصاب، في مدينة تحيط بها نيران المعارك من كل الجهات. ولأنّ الموتَ يأتي سخيّاً زمن الحرب، انضمّ خالي ـ الذي يقربني سنّاً ـ عبد المولى أبو علي إلى ركْب المصابين ومن ثمّ غادرَ القصير من على أحد أسرّة المشفى إلى السماء.

أختي، التي تليني، كان لها نصيبها في رحلة الآلام. أصيب زوجها خلال الحصار في وجهه، مؤدياً ذلك إلى تشوهه. أصبح الوضع العائلي صعباً، واستشرى خوف والديّ في قلبيهما... أصبحا ضعيفين على تحمّل المزيد؛ خرج أخوَيّ وصهري إلى القلمون في إحدى محاولات تهريب الجرحى، ومن هناك إلى لبنان حيث أكملوا مسيرة العلاج بعد أن تفادوا إبّان تهريبهم ـ بقدرة الله تعالى ـ الرصاص الذي تكاد لا تسلم منه سيارات نقل الجرحى.

* * *

على طول مشوار الفقد، كان يظلّ هناك من يقول ها أنا ذا... استشهد خالي، أبناء عمي، أصدقائي وخلّفوا حفراً سوداءَ في القلب، ورديةً في الذاكرة، أمّا أنا فبقيت أقصف من أوراق الشجر وأعجنها بماء الثورة لأغطي الثقوب.

# الخروج من الجنة

بعد التّقدّم الذي أحرزه الثّوار قبيل بروز مقاتلي حزب الله في خط المواجهة، كان صعباً جداً مجرد التفكير بالانسحاب. كانت معركة القصير مُهمّةً مصيريةً من حيث الهدف والمستجدات، إنما زاد من أهميتها التدخل الخارجي لأول مرة بشكل واضح، مرفقاً بالعدة والعتاد. اجتذب هذا الأمر مؤازرةً للثوار من عدة مناطق سورية، لكن أطواق الحصار التي فرضها النظام الأسدي بالتعاون مع حزب الله وجهل القادمين بجغرافية المنطقة صعّب دخولهم. وبينما حاول الكثيرون التسلل عبر حقول الألغام، لم تنجح سوى مجموعة من مقاتلي حلب بالوصول إلى الداخل المحاصر، على رأسهم الشهيد عبد القادر الصّالح، الشّاب الأسمر واسع الجبين الملقب بحجّي مارع، ورئيس المجلس العسكري في حلب حينئذ؛ الرجل الجسور عبد الجبار العكيدي. ومع أولئك كوكبة من المقاتلين أذكر منهم صديقي أبا فراس الحلبي، وستة أودت بحيواتهم الألغام قبل أن تطأ أقدامهم ساح المعركة.

تعلمُ الشعور حين تتهاوى، ثمّ تجد مُتّكأً يحول دون سقوطك؟ هكذا كان وصول المقاتلين القادمين من خارج القصير إلينا، ساعداً يشدّ عضدنا وكتفاً نميل إليه حين اشتدت علينا الخُطوب. كان

الهجوم كثيفاً والمعارك شديدة، لكنّ الثوّار انتشلونا من حافة الخذلان وأعادونا إلى ساحة المعركة حيث لا مجال للتراجع ولا للانسحاب؛ لا حلّ إلا الصمود. كان صوتنا يحاول جاهداً أن يخرق صمت الحصار، لكنّ أحداً لم يأبه لِحالنا. كنّا صامدين كشموعٍ تحاول جاهدةً أن تبقى مشتعلة كي تضيء درب المدنيين المحاصرين، لكننا في دواخلنا كنا نذوب... وكان علينا أن نتخذ قراراً مصيرياً يضع حداً لعدد الجرحى الذين صاروا كثرةً فوقَ الوصف.

* * *

مشفى ميداني واحد، يعملُ كخلية النحل ليل نهار، على مدار الساعة، حتى أضحى كخرقةٍ مبلولةٍ زادَ حِملُها من الماء وفاض... والجرحى في ازدياد... ثم زاد الطين بلة قصفُ المشفى أكثر من مرة، لكنّه عضّ على جراحه واستمرّ. كان الوضع يسوء مع كل دقيقة تمرّ... فالأطباء قلّةٌ نسبةً إلى الجرحى الذين يتوافدون بكثرة، مُجْهَدون من كثرة العمل، مدركون أنّ مأساة إنسانية على الأبواب ستحلّ بمجرد نفاد المواد الاسعافية والطبية، وأنّهم قريباً سيفقدون السيطرة على مصير الجراح، فتتعفّن.

وسط الحصار الذي ترتفع فيه قيمة كلّ سلعة، كانت أسهم الحياة تنخفض. لم يعد أحدٌ من المقاتلين خائفاً من الموت بقدْر ما كان يخاف الإصابة التي يعلم يقيناً أنها ستتطوّر مستعرضة أطياف الألم الناتج عن الالتهابات والتقرحات والعفن حتى يصل إلى الموت، أفلا يسهّل الأمر ويفتح ذراعيه للموت من البدء قائلاً: يا مرحباً؟!

وصل عدد الجرحى إلى ألف وخمسمئة في القصير وريفها،

وقاربت المواد الغذائية والذخائر على النفاد. لا مدخل للأدوية، ولا مخرج للمرضى إلا الموتُ مَرضاً أو قصفاً. كان قرار الانسحاب صعباً جداً، لكنّ البقاء على تلك الحال كان أصعب ما يكون. وكان دورنا كناشطين ومدنيين يتأطّر بالالتزام بقرارات القيادات العسكرية، حيثُ همُ الصامدون على جبهات القتال، والأدرى بالأصلح لنا ولهم. لمّا اتُّخِذَ القرار، كانت ردة الفعل الطبيعية للكثيرين هي الرفض. وبينما كان هناك من تكاد جراحه تقتله ألماً، كان آخرون يفضّلون البقاء في الأرضِ الأمّ، القصير، حتى آخر نَفَس. ومن الآخرين، كنتُ وطراد. من ضمن مجموعة تقارب المئة شخص، كنتُ وطراد. سنظلّ حتى الموت ههنا، قلنا. سنكون الجذور التي لا تبرح مكانها، أو تراباً لا يتنكّر للبساتين. كيف نغادر وما عدنا نستطيع تمييز ذكرياتنا من أحلامنا؟ كيف، وقد أصبح لكلّ منّا هواجس وأشلاء متناثرة لا يستطيع لَملمتها من كثرة الركام... أيّ هواءٍ يستطيع أن يُشبع أنفاسنا؟ وأيّ أرضٍ ستحتمل حزنَ قلوبنا المثقوبة...

ثمّ صُبَّ فوق القهر قهر.

«ما تفعلونه اسمه انتحار. لا يجوز لكم أن تبقوا وأنتم بلا ذخائر ولا حتى طعام... هذا إن كان ما ينتظركم يقتصر على الموت...!»

* * *

## حزيران/ يونيو ٢٠١٣

*«معارك القصير لم تنتهِ... مجازر ومآسٍ حصلت وتحصل معنا يومياً... أمور لا يمكن لعاقل أن يتخيلها... ولا يمكن لأحد*

*أن يصفها، والله لن نسامح أحداً*[1].

* * *

أزِفت ساعة الفراق ولمّا ننتهِ من الوداع، كان الانسحاب ليلاً. انطلقت آخر سيارة عند السادسة والنصف صباحاً بعيون تفيض دمعاً وأفئدة تعتصر أسىً. كانت نظرة عتاب واحدة كافية لإعادتنا أدراجنا... أخفينا تحت جنح الليل فِعلتَنا تاركين الصباحَ يطلُعُ على الأرصفة كما لو أن شيئاً لم يكن، لكنّ غياب الخطوات عنها وشى لها برحيلنا. بقيَت القصير رهينة تئنُّ ونحن نغادر، فيما ارتمت قلوبنا المتهالكة عند قدميها تستجدي السماح.

توجّهنا إلى ريف القصير حيث تجمّع الناس، ثمّ بتوجيهات المقاتلين، علِمنا أنّ علينا السير. كنّا نحو خمس عشرة ألف إنسان سائرين على غير هدى، وأغلبنا من المدنيين. كان جدّاي معنا يسيران إلى جانب أرتال النازحين حيث لا غمامة فوق رأس أي أحد.

معنا، كان يسير مقاتلو الجيش الحر بسلاحهم الخفيف والمتوسط. أما السلاح الثقيل فأُحرِق كله حتى لا يستفيد منه مقاتلو الحزب أو النظام الأسدي. بين كل مجموعة وأخرى، كان يتراءى للسائرين منظر الجرحى المحمولين، وكانت سرعةُ السير مضبوطة على مشية العجائز والأطفال ما جعل من الجنون قَطعَ سيلِ النازحين خمسةً وثلاثين كيلومتراً. وفي رحلة الهرب من القصف والحصار، كان العطش والجوع بئسَ الرفيقين.

كان الانطلاق من الريف عصراً، واستمرّ السير حتى فجر اليوم

---

(١) منشور لهادي العبد الله على فيسبوك.

التالي من غير توقّف. إبّان ذلك، كان ممنوعاً إشعال السجائر أو استخدام الهواتف أو المصابيح أو أي شيء قد يدلّ على حركتنا. وعلى الرغم من كل العناء الذي تكبّدناه، لم يكن ذلك شيئاً مما تلا وصولنا إلى أوتوستراد دمشق الدولي. كانت المنطقة خطرة، فجموع النازحين تحت مرمى النيران، والخطوة التالية بمثابة انتحار؛ عبور الشارع الدولي. فحتى نصل إلى منطقة أقل خطورة، كان ينبغي لنا عبور الشارع من نقطة تقع بين حاجزين عسكريين لا تتجاوز المسافة بينهما ألفاً وخمسمئة متر، ليلاً حصراً حتى لا نُستَهدَف. لكننا حين وصلنا إلى تلك النقطة، كان الفجر قد بزغ طاوياً ليلة من أسوأ ليالي العمر. مدينةٌ بأكملها تزحفُ خارجَ جِلدِها، ثمّ تجوع وتعطش على أطرافها ككحّة حنين... كما لو أنّ الأرض تقول: عودوا فلا ديار لكم غيري ولا مستقر... لكن أهدابنا كانت تلبَس الحسرات، وما لنا غير الشوق نبذُرُه في تربتها بينما نسير لعلّه ينبتُ عودةً يوماً ما. الساعة الخامسة والنصف صباحاً، لا مجال للتقدم. كانت أوّل مرةٍ أصلي فيها جالساً... أقعدني الوهنُ مُكبِّلاً أطرافي بعد أن تضافر معه الجوع والعطش. جلوساً صلّينا الفجر؛ أبو فراس وعبد القادر وطراد وأنا، ثم اتّكأ كلٌّ منّا على جذع شجرة لنرتاح. كانت الخطة تقضي بالمبيت نهاراً في البساتين حتى يعودَ الليلُ غطاءً، وكنّا نحاول جاهدين أن نفرّغ الأسى الذي يتملّكنا عبر الأشجار الممتدةِ الجذور.

الساعة السابعة وعشر دقائق بدأ ينقلبُ الهروبُ من الجحيم جحيماً. انتفضنا مذعورين على صوت القذائف، وإذا بالنظام الأسدي وعناصر حزب الله يحيطون بالبساتين ويتقدمون باتّجاه المدنيين المتناثرين في البساتين، ألفين أو ثلاثة في كل بستان. ولمّا كان الناس كثرة، كانت كل قذيفة تُضرَبُ تُصيب.

لم يكن للثوّار أن يحولوا بيننا وبين الجوع والعطش، لكنّهم

فعلوا ما بوسعهم للتصدّي للجنود من حولنا. وقفوا كالسّور بما تبقّى لديهم من أسلحة، لكن شظايا المعركة غير المتكافئة كانت تصلنا على شكل قذائف ورصاص حي. أذكر جيداً وجه طراد حين قال وهو يضحك: «بشو عم تحتمي؟»، ولمّا نظرت إلى نفسي فطنتُ إلى ما يرمي إليه. كنتُ واقفاً خلف شجرةٍ رفيعة الجذع تحتاجُ هي إلى من يخبئها.

خلال ست أو سبع ساعات، قُتِل عدد غير معروف من عناصر الحزب ودُمِّرت ثلاث دبابات لهم. وفي الأرض التي شهِدت مأساة نُزوحنا دفنّا اثني عشرة شهيداً قضوا بين قصف واشتباكات، لم يرضوا لرفاتهم أن تدفن بعيداً جداً. كنّا نصوّر، طراد وأنا، حين طَلب مني أن أوجّه كلمة.

ـ *«ما لي نفس... ما حسنان احكي ولا حرف... أنا أصلاً طالع عايش خذلان... ما حدا رح يسأل علينا إذا صار علينا شي...»*.

كل التفاصيل التي نقلتها من قبل، والأخبار التي خاطرت لمعرفتها لم تأتِ بنتيجة. ألآن تفعل؟ قال «نتصوّرُ للذكرى»، لكن أي ذكرى تلك التي سنعيش لنرويها؟ أسنرغب باستعادة ذكرى كهذه؟ وهل سنعيش حتى نرغب بذلك أو لا نفعل؟ وإن حصل أن نجَت آلة التصوير من الإصابة، هل ستنجو من أيدي رجالات الحزب والنظام؟ لكنّ أسئلتي كلّها لم تعنِ شيئاً لطراد الذي صوّر نفسه ثمّ راح يوثّق كيف يعالج الدكتور قاسم الزين الجرحى بأدوات بسيطة تحت الأشجار في وضعٍ أقلُّ ما يقال فيه أنّه مُبكٍ.

كانت لنا بقيّةٌ من النهار استراحةَ المحارب، ننتظر الليل حتى نمرّ. وكانت تتجاذبُ جسدي قلة النوم والجوع والعطش، أيّها يفتك

به أوّلاً. وكان عبد الجبار العكيدي يحاول تهوين الأمر علينا، فيذكّرنا أن النبي محمداً ﷺ حوصر في شِعبه وبين أهله، وكان الناس يأكلون أوراق الشجر التي لم يتبقَّ لنا أيضاً غيرها بعد أن أكلنا ما وجدنا من لوز على الأشجار. كان كلامه ليكون مؤثراً لو أنه قيل في غير حالنا تلك... لم يترك فينا التعب والجوع ما يعيننا على الاستماع إلى النصح أصلاً.

وصل الليل، ولا أدري هل طال قبله النهار أم شقَّ علينا الصبر. قبل ساعة من منتصف الليل تقريباً حانت اللحظة المرتقبة، بمجرد عبورنا للطريق الدولية نكون قد تجاوزنا الجزء الأصعب، فعلى بعد خمسمئة متر يقع الحاجز الأول وعلى بعد ألف متر من الجهة المقابلة يقع الثاني. وبين نيران حزب الله والنظام الأسدي، كان على المدنيين العبور، حاولتُ الوقوف فأحسست بالأرض تدور ووقعت، مدّ طراد يده إليّ وقال «أنا بسندك»، لكنني أبَيْت. لم أشعر أنني أستطيع السير، حتى لو متّكئاً عليه. حاولت إقناعهم بالمُضيِّ قُدُماً على أن ألحق بهم بعد أن أرتاح قليلاً، لكنّ طراد رفض رفضاً قاطعاً. قلتُ لهم: أريد ماءً إذاً. لمّا رأى العميد ـ وهو شاب من القصير أعرفه مسبقاً ـ ما حصل، ذهب باتجاه البساتين يبحث عن ماء ليعود بعد ربع ساعة أو أكثر وبيده علبة حديدية أغلب الظنّ أنّها تستخدم لسقاية البهائم. في قعر العلبة كان هناك قليل من الماء الذي لا يشبه الماء... رائحةُ فضلات البقر، أو وقود، أو خليط من كلّ شيء يدعو إلى القرف... لكن من قال إنّ الرائحة تهمّ حين يُفجَعُ الجسد بفقد الماء؟ جرت القطرات تلك فيّ أطيبَ من العسل إذ لوّعني الغياب ويبّس حنجرتي. لم تعد لي حجّةٌ للقعود فقُمت.

على شكلِ رتلٍ مشينا جميعاً وإلى الأكتاف والأكفّ يستند ألف جريح، لكنّ الجنود يعلمون بِنِيّتنا العبور فأمطرونا قذائف حتى

اشتعلت نارٌ في مكان قريب منّا. تحت جنح الظلام لا يعلم أحدٌ ما الذي أصاب، ومن أصيب... وصلنا إلى جدار منخفض الارتفاع حيث قيل لنا هنا يبدأ الخطر. يتوجب علينا عبور الأوتوستراد الذي يربط دمشق بحمص بأسرع ما يمكن، حيث ينتظرنا أناسٌ على الطرف الآخر. كل احتمال واردٌ فيما تقطعُ الطريق؛ احتمال الإصابة، وربما الموت، أو أن تكتب لك الحياة من جديد.

بدأ جمعٌ من الناس قبلَنا، ثمّ لمّا دوّى إطلاق النار الكثيف توقف البقية. خارت قواي مرة أخرى ووقعت، فتلقّفني طراد وأسندني إلى كتفه حاملاً حقيبتينا وأنا. كان ذلك أوسعَ من أن تحتويه مفردة صداقة أو أخوّة، أن يصبح كتفٌ عكّازَك، فتغدو أقربَ من القلب... تسمع نبضاته وتتشاطر معه ألَم الخذلان والخيبة.

كان عبور الشارع نقطة مفصلية. كما لو أنه انتزاع لكلّ الماضي قسراً، والمُضيّ من جديد. رحلة بحثٍ عن وطنٍ كلُّ جزءٍ منه يبكي جراحه للآخر. وبينما تُوَلّي وجهك شطرَ ضِفّة النجاة، تتذكّر أحلامك التي تركتها في بيت جدك، وعلى طاولتك وفي خزانتك. الطّرقات التي كنتَ تفكّر ملياً أيّها تسلك، والوجوه التي لم تحفظ قسماتها لأنّك لم تتوقّع أن يسبقك إليها الفراق. أيّها أحق بالتذكر ههنا، قبل الرحيل؟ أقَلبُكَ الذي ستنهش منه الأيّام وهو عنيدٌ مُكابِرٌ يرفض الإضراب؟ لِمَ لَمْ يكنْ لك أن تحمل، فوقَ أوجاعك، أشياءك التي عَهِدتَ أن تحمل إليك رائحة الأحباء، ولتعيدَ صورة القصير إليك إذا ما باغتك النسيان؟

* * *

في كلّ أيّام حياتي كنتُ أحب اتّساع الطريق، إلا الآن. طريق دوليّة رحبة بالاتجاهين، ذهاباً وإياباً، تزيد من فرصة خسارة المرء

لرمقه الأخير. واستلزم وجود الكثير من الجرحى خلفنا كبشاً يجرّب العبور قبلهم. نظرتُ إلى طراد والشباب بعد أن ردَع إطلاقُ النارِ الناسَ عن العبور، وقلتُ مستهلكاً ما تبقى لديّ من أنفاس: «*يا شباب، إذا بقينا لبكرا هون رح نموت جوع وعطش أو يمكن يمسكنا النظام ونحنا عايشين. . . أكثر شي منموت*».

في الحرب تنقلب الموازين، ويصبح الموتُ، كابوسُ الأصحاء قديماً، معبراً للنجاة. أمسكنا أيدي بعض بشجاعةِ مستقبلي الموت، وركضنا نحن الأربعة ـ طراد، ابن عمي، العميد وأنا ـ مُتفلّتين من ذرّات الخوف الأخيرة وأقدامُنا تكاد تلطم ظهورنا من السرعة. لم نكد نفكّر كم قطعنا وكم تبقّى من مشوار العهد الأخير حين عصفتْ السماء بنا وأمطرتنا رصاصاً. سوادُ الليل، صوتُ الرصاص، أيدٍ تتفلتُ، أجساد تتدحرج، جرحى مرميّون على اتّساع الطريق، ولحظاتٌ تمتدّ وتطول كأنّها لن تنتهي. وبين ألسِنة النار من السماء والشفاه المتأوّهة على الأرض، لم تكن للهارب حيلة إلا أن ينجو بنفسه، فدسست نفسي بين الجرحى متظاهراً بالموت من دون أن أستطيع فعل شيءٍ لهم. تفرّقَ جَمعُنا وبقيت وحدي، ضِعت، زحفتُ ما استطعتُ حتى وصلت الجانب الآخر منهكاً كالخارج من إعصار. . . وأيّما إعصار. في تلك اللحظات كان عطشي للهواء كعطشي من قبلُ للماء. كنتُ أنهَلُ منه كأنّني لم أتنفس منذ غادرت الطرف الأول من الطريق. لا أدري بالضبط أين استقريت، ولا من نجا ولا من قضى. . . ولم تكن المنطقة آمنة، إنما خالية من الرصاص. خفتُ أن أتحرّك من مكاني فيعتقلني عناصر النظام الأسديّ، ولم تكن فيَّ قدرة على المقاومة إن حدث وأمسكوا بي. . . لم أكن في حالةٍ تسمح لي بالتفكير في الهرب إن حدث وباغتتني يد على كتفي. بعد أن ارتحت نحو الربع ساعة، حاولت

المشي على الرغم من الخوف الذي يتملكني بخصوص وُجهتي. «ايييه! وين آمشي!» .. على ظهري حواسيب وآلات تصوير، وفي قلبي ذعرٌ مما قد تحمله الدقائق القادمة... تنازعني الأفكار فلا أدري ما الأرجح ولا ما الأصوب.

توكّلت على الله وسِرتُ حتى سمعت جلبةً قريبة فتوقفت. حاولت الإصغاء كي أسمع ما يقولون فأعرف مَن هم أو إلى أي فصيل ينتمون. اختبأت خلف جدران استراحةٍ مهجورة، وتنصّتُّ ربع ساعة حتى آتى الانتظار أُكُله، حيث سمعتهم يذكرون كتيبة الفاروق ويصيحون بأسماء قادة القصير فعرفت أنهم من الثوار. برزت إليهم وعلامات الإعياء على وجهي تتراءى لهم في الظلام، لمّا رأوني عرفوني على الفور واهتمّوا بي ثم أخذوا يصيحون لبعضهم أن: «هادي هون، لقيناه». قالوا إنهم سينقلونني إلى منطقة آمنة، لكنني قبل كل شيء وددت رؤية طراد وابن عمي. ارتميت على الأرض وتنفست الصعداء قبل أن أغفو إذ وصلتُ إلى بر الأمان. بعد قليل وجدت طراد قادماً إليّ، ففرحت كثيراً وضممته وسلمت عليه وأنا أكاد لا أصدق أنه بخير. انضم إلينا ابن عمي لاحقاً، وشربنا الماء عند الثوار. عرفت لاحقاً أن طراد كان قد بحث عني طويلاً بصحبة ابن عمي قبل أن يجدوني.

ارتدى الخروجُ من القصير ألواناً عديدة من ألوان الموت، ولكن أيّاً منها لم يغيّر قدَرنا، حيث كُتبت علينا لوعة الفراق والجوع والعطش والقذائف والرصاص مهما تمسّكنا بأيدي المحبّين. قررنا الذهاب إلى منطقة «الحِسْية» الواقعة على أوتوستراد دمشق ـ حمص حيث استرحنا لساعتين ثم انتشلتنا من كل هذا سياراتٌ نقلتنا على عدة مراحل إلى القلمون.

# هدنة

تملّكني اليأس من نشاطي الإعلامي، حيث «قد أسمعتُ لو ناديتُ حياً»، وأصبحت أفكّر جدّيّاً بالإقلاع عنه. لم أعد أريد.

طراد وأنا الآن في القلمون، وتحديداً في «قارة» عند صديق لنا. أخذنا قسطاً من الراحة عنده؛ أكلنا وشربنا ونمنا، ثم اشترى لنا ثياباً جديدة. بعد انقضاء الليلة الثانية، انتقلنا إلى يبرود، حيث كان لنا بيتُ أبي مسعود، المسؤول عن تنسيقية يبرود، بيتاً ثانياً، وعائلته أهلاً لنا مذ حللنا عندهم. استقبلنا أبو مسعود وزوجته، وفتحا لنا الباب على مصراعيه، وأكرماني وطراد أيّما إكرام فجعلانا أخوين لأبنائهما مسعود وسهيل ووسيم في المعاملة والطعام واللباس، في وقت كانت استضافتنا تعرّضهم لخطر الاستهداف في أي لحظة. مواقع التواصل الاجتماعي تعجّ بالتساؤلات عن غيابي، حيث سبقه ظهوري الكثيف في تغطية الحصار والمعارك. لكن أنّى لي التواصل إبّان رحلة مشوار الهجرة القسري؟ وما الذي سيزيده الإعلام فيما نغرق باللوعة ولا نصيرَ لنا سوى الله؟

إن من السهل جداً أن يدّعي الواحد محبّة الناس له، لكن فيض الدعوات التي طفر بها المنشور كان دفعة أملٍ كبيرة بعد أن تملكني اليأس من جدوى عملنا في تغطية الأحداث. بعد ذلك، كانت لنا

عودة مع الحياة الروتينية. التقيت أهلي واطمأننت على أخويّ حيث كان وضعهما الصحي سيئاً جداً وكانا في طور العلاج. مع الوقت، بدأت الحياة تتسرب إلى أيامنا رويداً رويداً، وبدأ أخواي بالتعافي. توجّه منذر إلى لبنان للعلاج، وعاد على الرغم من خطورة إصابته إلى يبرود ليستكمل علاجه فيها. كانت فرصة جيدة للخروج من جو الصدمة والمعارك وقسوة المشاهد والأحداث حيث كان زمن هدنةٍ، ولكنّ للقصة فصولاً كأغصان الأشجار؛ تمرّ عليها فصول السنة، فتطول وتكتسي أوراقاً وتزهر، ثمّ حين يعود الخريف تعود إلى حزنها الأول. بعد عدة أشهر، مللتُ وطراد. نتساءل لِمَ لا نزال مستريحين. بعد المراجعات والمتابعات المطلوبة، ما زالت القلمون قابعةً في هدنةٍ نسبيّة تشوبها بعض الأحداث، إلا أنه أصبح حريّاً بنا التفكير ملياً في مكان نتابع عملنا فيه، حيث إن الثورة لم تخمد، وما زال فينا بَقيّةٌ نبذلها على طريق الحرية.

# استئناف

من هنا كان الانطلاق لتغطية أحداث معركة مهين في ريف حمص. استمرت المعركة نحو خمسة وعشرين يوماً، استعصى على الثوار خلالها اقتحام مستودعات للذخيرة في مهين. وفي إحدى المرات، بينما كنت جالساً مع طراد في منزل أحد الأهالي ـ الذي فتح لنا باب داره واستضافنا عنده ـ من اقترحت عليه أن نسير إلى الثوار لنستكشف تقدّمهم، على أمل أن يكونوا قد نجحوا في مهمتهم فنوثّق ذلك. في تلك المعركة، كنا نصوّر من دون أن ننشر، حتى إذا ما انتهت العملية بنجاح، يأتينا أمر بالنشر والاعلان فنفعل. سرنا مسافة لا بأس بها، وبينما نسير قابلنا شخصاً قادماً بسرعة في اتجاهنا مصطحباً جرحى. سألنا عن زمر دمنا فأجبته أ+، فطلب مني مرافقته إلى المستشفى الميداني للتبرع للمصابين.

هناك، اضطر الطبيب إلى سحب كمية مضاعفة من دمي لكثرة الحاجة إليه، فطلب مني المغادرة فوراً إلى المنزل، ثم أن آكل وأنام حتى إنه أصرّ على ألا أمشي. وافقت على كلامه، وبينما نحن خارجان لتنفيذ التوصيات، وإذا ببشرى السيطرة على مستودعات الذخيرة تصلنا. نظرت إلى طراد كأنني أشير له بضرورة توجهنا إلى هناك،

*ـ وتوجيهات الطبيب؟!*

*ـ علينا أن نذهب، فوراً.*

لم أترك له الخيار في تحديد وجهتي. اصطحبتنا سيارة إلى مكان الاقتحام، وهممنا بالدخول للتصوير. كان علينا أن نقطع مسافة طويلة نسبياً سيراً على الأقدام قبل أن نباشر بتصوير اللحظات الأخيرة من العملية، الأمر الذي أدى إلى إصابتي بالدوار. وفي غضون ذلك، مرّت آلية للثوار من جانبي، فرميت بنفسي متعلّقاً بها من الخلف وصرخت لطراد أنني سأنتظره في المقدمة وأرتاحُ بينما يصل. كانت المرة الأولى التي أبتعد فيها عنه أكثر من مترين. لا أدري كيف طاوعني قلبي أن أفعل، ربما لم يكن جسدي ليحتمل أكثر مما هو عليه حتى آثرَ التقدّمَ وترَكَه في الخلف. وبينما أنا أبتعد، والصورة تغور، سمعت غارة طيران وقَفَتْ على إثرها الآلية، فاحتميت بها من الخلف وأنا شبه مغمى عليّ، أكاد لا أعي ما يحصل. كان طراد يصوّر في تلك الأثناء، وكانت الآلية متوسّطةً عدسة كاميرته. انهمرت الصواريخ من الطائرة باتجاه الآلية، نُصبَ عينيّ طراد. لطفُ الله أن كانت الصواريخ صغيرةً نسبياً، نالني منها شظيةٌ في الرأس أبكت مقلتي طراد، وجعلتني أبصر دموعه الملهوفة لأول مرة مذ عرفته، كان ذلك أغرب من أن يوصف، وأجملَ من أن يُحسّ؛ أن تدرك كم أنت غالٍ على أحدٍ، كان بالأمسِ مُتَّكأً لك في رحلة التهجير، والآن يوثّق إصابتك ثمّ يهرع إليك بمزيج من الحبّ والخوف.

أُسعِفتُ بعد ذلك، وضمدت جراحي، وانتُشلت الشظية من عظام الجمجمة. ولو أنّها أولجت قليلاً لكان دماغي تأذّى، لكنه لطف الله مرة أخرى، كما في كل آن.

عدنا إلى المنزل لأستريح. كنتُ أشعر أنني أختنق، أو أنني سأنفجر من الجلوس بينما يتوجب عليّ أن أكون في الموقع أكمل التصوير. وهكذا، لم أكد أكمل يومي الأول حتى خرجت في اليوم التالي بضمادة على الرأس وعزيمةٍ لإكمال ما بدأت به.

* * *

*ـ معنا الآن عبر سكايب من حمص، هادي العبد الله عضو الهيئة العامة للثورة السورية أهلا بك يا هادي، هادي ضعنا في صورة التطورات الميدانية لهذا اليوم في منطقة حمص وريفها اليوم.*

*ـ تحية لكم، لعل أبرز الأحداث التي حصلت اليوم في حمص هو إعلان الثوار في منطقة حمص والريف الشرقي لحمص سيطرتهم الكاملة على مستودعات الذخيرة في بلدة مهين. هذه المستودعات تُعد ثاني أكبر مستودعات في سوريا. تمكن الثوار بعد حصار دام ما يقارب عشرة أيام، وبعد أن طهروا المناطق المحيطة بهذه المستودعات تمكنوا من تحريرها بشكل كامل.*

*ـ فقدنا الصورة هادي، هل ما زلت معنا؟*

ـ . . .

*ـ بداية أريد أن أسألك عن الأسلحة، هل ما زالت في المستودعات أم أنها توجهت إلى منطقة أخرى، وأود أن أسألك عن شيء آخر، نراك مصاباً، سلامتك؟ هل كنت في هذه المعارك أيضاً؟*

*ـ نعم، نسأل الله أن يسلمك ويسلم كل الجرحى السوريين، بالفعل أصبت قبل يوم أمس أثناء محاولتنا اقتحام مستودعات الذخيرة حيث استهدفتنا غارة جوية قام بها الطيران الحربي على مشارف تلك المستودعات، واستشهد بعض الثوار الذين كانوا بصحبتي. . .*

* * *

بعد إصابتي في مهين، عدت إلى يبرود حيث تعالجت من إصابتي التي لم تكن خطيرةً جداً بحسب وصف الأطباء الذين شددوا على أنّ سنتيميتراً واحداً كان ليكون الحد الفاصل لحياتي.

# طريق الدماء

يسألوننا دائماً ما هو سر استمراركم في ثورتكم على الرغم من كمّ المجازر والإجرام؟! ربما هي أسباب كثيرة تلتقي عند نقطة واحدة؛ «الوفاء للدم!» ربما أراد الله لهذه الثورة أن تستمر حتى تثمر... ألَمْ تبدأ بخربشات أطفال على جدران مدرستهم؟! ألم تقوَ وتستمر بصمود نساء وقفن أمام الدبابات في بانياس؟ ألم تشتعل ويزدد لهيبها بصرخات أطفالٍ قُتلوا ذبحاً بالسكاكين في كرم الزيتون والحولة؟

ألم نتحسس جميعنا أجساد أطفالنا حين رأينا جثة الطفل الشهيد *حمزة الخطيب* التي شوّهت عصابات الأسد معالمها في المعتقل؟ ألم ينتفض الكرد عن بكرة أبيهم عندما قتل الأسد رمزاً كمشعل *تمو*؟ وبقيت هكذا على الطريق ذاته... كلما ضعفت أو تراخت عزيمة أبنائها تحدث مجزرة أبشع من سابقاتها تذكرنا بإجرام الأسد وحلفائه، تزيد يقيننا أننا على طريق الحق على الرغم من كل المعوقات والتحديات!

الثورة لم تخمد...

الثورة لم تخمد، وما زال فينا بَقيّةٌ نبذلها على طريق الحرية. قررنا أن تكون الوجهة التالية هي *الغوطة*؛ *غوطة دمشق*. سألنا عن

أفضل الطرق المؤدية إلى هناك، فجاء الرد بأنّ علينا السير إليها مترجّلين. قلنا لا بأس. نخرج من القلمون الغربي إلى الشرقي مشياً على الأقدام، ونمرّ بالرحيبة ثم بالضمَيْر لنصل أخيراً إلى الغوطة. لا حلّ آخر أصلاً! فكرتُ وطراد بأنّنا نستطيع أن نستقر في الغوطة متى وصلنا إليها، حيث نكون قريبين من الشام كي نشهد إسقاط النظام من هناك. كان لدينا أمل أن نقدّم شيئاً ما للثورة من وسط المنطقة الساخنة.

جهزنا معدّاتنا، واستعددنا نفسياً قبل أن أودّع أهلي وأشرح لهم تفصيلياً أهمّية توجّهنا إلى الغوطة. كان الخوف سيد الموقف، لكنهم كانوا يحترمون قراراتي ويقدّرونها أيّاً كانت. من بعد غروب الشمس، كانت بداية المسير، غُصنا في عتمة الليل بين الحواجز حتى قبيل الفجر، أمضينا ثماني ساعات من السير تسلّقاً لجبالٍ وهبوطاً منها... كانت من أصعب التجارب التي مررت بها. حين وصلنا إلى الرحيبة، كان التعب يرشح من أجسادنا كقطرات ندى عصيّة على الصباح، وصوتُ الدليل يرنّ في آذاننا وهو يردد أنه لن ينتظر أحداً لأن أي تأخير قد يجعل عاقبة المتخلّفين عن المسير الوقوع في قبضة أزلام النظام. بعد يوم كامل، وصلنا إلى الضّمَيْر حيث كان علينا أن نجد طريقنا من هناك إلى *الغوطة*.

رحنا نسأل كل من نصادف عن الطريق المؤدية إلى وجهتنا المحاصرة، حيث كانت تجري معركة محاولة فك الحصار من قبل الثوار[1]. لم نجد بُدّاً من الدخول سيراً على الرغم من كل التنبيهات التي تلقّيناها حول خطورة المكان. لم يكن أمامنا خيار آخر بأي حال.

---

(١) محاولة باءت بالفشل.

كان البدرُ ضاحكاً بينما كانت الدنيا تكفهرّ، ما اضطرنا إلى الانتظار حتى نُحُولِه، فنورُه الذي يفيدُ كشافةً في رحلة تخييم قد يتسبب في مقتلنا بينما نتسلل إلى الغوطة. كنا نحو الثلاثين شخصاً، في أمسّ الحاجة إلى ظلام دامس للعبور بين قطعتين عسكريتين للنظام ـ فرقة ١٦ واللواء ٢٠ على ما أذكر ـ. في يومنا الأول، وصلنا إلى نقطة الصفر حيث مكان الانطلاق، وما إن شرعنا في المسير حتى تعرضنا لإطلاق نار، بدا وكأنّ أحداً متأهّباً يدري بأمر خروجنا. قَفَلنا عائدين إلى «الضمَيْر» من غير إصابات، ونحن نفكر في محاولتنا التالية، متى وكيف ستكون.

لمّا أُعطيت لنا الإشارة بعد يومين لنتجهّز، وبعد أن انطلقنا باتجاه الغوطة الشرقية، عاجَلَنا كمينٌ قبل أن نصل إلى حيث وصلنا سابقاً، فالتففنا رجوعاً خائبين. كان ذلك سبباً كافياً لتعديل الخطة وتغيير المسار للوصول إلى هدفنا. نبدّل الطريق إلى آخر مضمون وآمن، لا يشوب عبورَنا إياه رصاص أو قنابل.

في المحاولة الثالثة، والأصعب، قيل لنا سنغير الطريق. رتلٌ أحاديّ مؤلف من ثلاثين إلى أربعين شخصاً بين مدنيٍّ ومسلح من الجيش الحر، سار لمدة ساعتين أو أكثر بنصفٍ، مكللاً بآمال الوصول إلى الغوطة بعد كل المشقة المبذولة. كنت أسير سابعاً وخلفي طراد لمّا فوجئنا بانفجار ضخم أمامنا قبل أن تغزوَ المكانَ سُحُب الدخان وتتوالى الانفجارات دافعةً إيانا بعيداً عن الرتل كله. مع رهبة الليل، تكاتفت الأصوات والدخان لتزيدنا رعباً. وبينما ابتعدنا عن الطريق، أمسكت طراد وصرت أتساءل وإياه عمّا يحصل... هل هو كمين آخر؟ أم قصف مدفعي؟ أم ألغام؟ أسئلةٌ تستوضح عمّا يحصل لكنّها أبداً لا تلقى إجابة عن مصيرنا في الدقائق القليلة المقبلة. بعد عشر دقائق من الذهول، استطعنا تحليل

الموقف واستكشافه. كانت تلك ألغاماً أرضية مزروعة في الطريق حتى لا يستطيع أحد ـ بمثل طريقتنا ـ الدخول إلى الغوطة. لكن معرفة هذا الأمر تحديداً بدا غير ذي نفع إذ وجدنا ـ طراد وأنا ـ أنفسنا أمام استحقاق أهم: إيجاد رفقائنا من المتسللين.

لم يكن هنالك أثرٌ لأحد في الأفق المظلم، كأنما لم يبقَ سوايَ وطراداً في المنطقة. وبينما أفكّر فيما علينا فعله، أشار طراد إلى أنّ مجموعة من الأشخاص كانوا قبلنا في المسير، ما يحتّم أمرَ إصابتهم نتيجة انفجار الألغام. كان يقصد التقدم لمساعدتهم، بينما يعلم كلانا أن خطوة خاطئة واحدة تكفي لتحويلنا إلى مصابين أيضاً. وعلى الرغم من مدى خطورة الموقف، بدأنا نمشي بحذر شديد، نلتمس خطوات بعضنا كفأريْ تجارب. بعد قليلٍ من السير المتمهّل والبحث البطيء بدأ يتناهى إلى أسماعنا صياح أحدٍ ما... وفجأة، انجلت الصورة عن ستة أشخاص والكثير من الصراخ. وبعد تحسّس رقبة أحدهم للتأكد من أنه على قيد الحياة، تبيّن لنا أن الموجودين خمسة مصابين وشهيد. كان جُلّ الإصابات في الأرجل، حيث تحوّلت غالبيتها إلى أشلاء. وعلى الرغم من الظلام الذي يلفّنا، كانت رائحة الدماء المنبعثة تشي بقوة النزيف.

عاد السؤال مجدداً إلى ذهني؛ ماذا سنفعل الآن؟ وكأنّ الحرب كلّها تُختصر بعلامة استفهام، حيث لا متّسع للتفكير أو الحزن أو الانفعال، بل العقلانيةُ الإجباريةُ صراعاً للبقاء. كنتُ وطراد الشخصين الوحيدين اللذين يمتلكان قدمين. وكانت المسؤولية ـ مع وجود جرحى ـ كبيرةً بقدْر جهْلنا بالمنطقة؛ لم نعرف كيف نرجع، أو إذا كان علينا أن نُكمِل إلى الغوطة... ولكن كلّما زادت حيرَتُنا، زاد تأكّدنا بأنّ علينا ألّا نفكّر في أي حلّ يتضمّن ترْك الجرحى ينزفون.

حاولنا أن نُرجِع الجريح الأول إلى الخلف محاولين استذكار أماكن خطواتنا، لكنه كان ثقيلاً جداً على اثنين، خاصة أن السَّير مدة ساعتين ونصف أخَذَ من أنفاسنا أكثر بكثير مما أبقى. ما الذي نستطيع فِعله ببقايانا المتهالكة؟

وضعناه على الأرض وطمأنّاه أننا سنعود، لكن كلماتنا لم تُقنعه فمضى يُلِحّ علينا بالرجاء ويستحلفنا ألّا نتركه، ثم وجدنا شابّين مختبئين فطلبنا منهما المساعدة، ولما ظننا أن الفرج قد جاء، بدأت قوات النظام برمي القذائف الضوئية علينا واستكشاف ما يحصل. أمسى الجو مرعباً أكثر مما كان، وبتنا خائفين من اقتحام لا طاقة لنا به... بدأنا بنقل الجرحى، ننقل الواحد تلو الآخر مسافة عشرة أمتار إلى الخلف تاركين الشهيد وحيداً في المقدمة. كنا لا نزال نجهل موقعنا، ونتحسّب لهجوم في أي لحظة في حين يحيط بنا الجرحى من كل الجهات. كانت حبيبات العرق تنهمر غزيرة، فيما يشلّ قوانا الإنهاك.

هي ذي النهاية، قلت في نفسي. الفرق هو أن لدينا الفرصة الآن لنودّع ونبتهل إلى الله قبل أن نلفظ أنفاسنا الأخيرة. صرت أقرأ آيات من القرآن الكريم، وبكينا جميعاً... ودعونا جميعاً... كنت أحدث نفسي عن فحوى الدعاء، وكيف أنه يجب أن يكون من ضمن المعقول. كيف أدعو الله بالنجاة وعساكر النظام تكاد تُطبق علينا السماء... والأرضُ من تحتنا بحرُ نارٍ، لا ندري متى تقع قدم الواحد منّا على إحدى قنابلها فينتهي.

فيما كنت أرفع أحد الجرحى، أشار إليّ طراد أن أنتبه أكثر كي لا أؤذي الجريح بقلّة مداراتي، وترنّحي من التعب. لمّا سمع الجريح طراداً، سألني: «من أنت»، وحين لم أجبه، استحلفني بالله

أن أجيب... قال: «سمعته يناديك هادي»، وأمام إصراره أجبته أن اسمي هادي. وعوضاً عن كفّه عن الكلام، أصرّ على أن يعرف كنيتي. قلت: «بالله عليك اتركني بحالي!»، كنتُ حامِلاً إياه وهو يكلمني، أعدتُ عليه أن يتركني بهمّي ولا يزيد في الكلام، لكنّه كان لحوحاً كما منذ البداية، قال: «بالله عليك، ألست هادي العبد الله؟»، وما كدت أقول بلى حتى دبّت القوة في جسده فرفع نفسه من بين يدي وقبّلني على خدي وبدأ ينهال عليّ بكلمات الشكر والثناء... لم أتمالك دموعي فيما ابتسمت. أخبرني أنه كان قائد كتيبة، وأن كتيبته تركته فيما أحمله أنا. قلت: «هذا واجبي»، لكنه نفى ذلك وعاود تقبيلي فضممته، ثمّ توقفت عن المسير ووضعته أرضاً لأضمّه مجدداً، وقلت له: «أنت أخي، ولا أتركُكَ مهما حصل...»، كلمة رجل لرجل يشهد عليها الله ﷻ.

أما عن أبي حمزة، الشاب الدرعاوي المتوجه إلى الغوطة، فله ذكرى لا تغيب عن ذاكرتي... كان مصاباً ذلك اليوم، حين نظر إليّ وإلى طراد وقال لنا أنه يشعر بالبرد. خلعت سترتي وبقيتُ بقميصٍ قطنيّ، ثم غطيتُه بها. نظر إلي وقال: «هذه هي النهاية، انتهيت»، وأنا أبكي قلت له «لا»... لكنّه لم ينتظرني حتى أوافق... ومن أنا حتى أوافق؟ نطق بالشهادة وسلّم روحه تاركاً رفاته في حضني، ورأسه بين ساعديّ علّني أدفئه... وعلى الرغم من الكمّ الهائل من صور الشهداء التي تتزاحم في ذاكرتي، والجرحى الذين تقاطعت خطوط حيواتهم مع حياتي، إلا أنّ أبا حمزة كان أول من يموت بين يدي. جنون المرة الأولى؟ أو تفرّدها؟ هل حقاً يصبح كل شيء بلا معنى حين يتّسم بالتكرار؟ هل يصبح الأشخاص أرقاماً إن أصبحوا جزءاً من توليفة الروزنامة السنوية؟ أليس الموت مرةً أولى في كل مرة، وممارسة الحياة هي التكرار؟!

شهق أبو حمزة، فأحسست بملك الموت قريباً جداً من أنفاسي. صرت أبكي أكثر وأنا أتلو سورة الملك وأدعو له... أعلَمتُ الباقين باستشهاده، فذُعِر الجرحى ودبّ فيهم الخوف إذ استشعروا قرب النهاية. صرت أفكر بما علينا أن نفعل، فتذكرت أن الدليل الذي كان يصحبنا يُفترض وجودُه بين الخمسة الأوائل، فاستفهمت عنه وإذ به معنا بين الجرحى! قلت له: «بالله عليك لماذا لم تنطق من قبل! أمعك قبضة لاسلكي؟»، فناولني إياها بعد ساعتين ونيّف من نقل الجرحى! سألته عن مكاننا فأجاب أننا في منطقة الخيمة الصفرا، ثم استفهمت عن الجهة التي تمّ توليف قبضة اللاسلكي للتواصل معها، فأجاب أنها متصلة بغرفة عمليات الضمَيْر. صرت أنادي مسؤول التواصل في غرف العمليات، اسمه رضا، صرت أصيح باسمه وأكرره حتى سمعني ورد عليّ فلم تكد تسعني الأرض من الفرحة. قلت له: «معك هادي/ أبو عدنان»، قال لي: «أي نعم هادي، طمئني أين صرتم؟»، فأخبرته عن الكمين الذي تعرضنا له وعن موقعنا بالضبط. أسكتني عن الكلام لأن الأجهزة مراقبة، ولو أن أحداً وصف لي ذاك اليوم بأحداثه وشخوصه لما صدقته... كأنه كلام أفلام بالغ المخرج في تصويرها، أو حبكات يُقصد بها إثارة المشاهدين لا أكثر... طلب مني أن أتوقف عن الكلام وأخبرني أنه سيرسل من يساعدنا، وقبل أن يسكت نهائياً، طلبت منه نقالات جرحى.

لم يكد ينهي رضا كلامه حتى صدق تحذيره، حيث إن منطقة قريبة من مكان تواجدنا بدأت تتعرض للقصف. كانت الأجهزة مراقبة فعلاً... لكن لم يكن لدينا حلّ آخر بكل الأحوال. وبينما ننتظر العون، كان خوفنا من اقتحام قوات النظام للمنطقة يكبر ويزيد. ولو أنني أعلم منذ البداية بموضوع المراقبة، إلا أنّ قبضة اللاسلكي

كانت الورقة الأخيرة في اللعبة، ولم يكن باليد حيلة إلا أن أزجّ بها في ساحة المعركة على أمل أن تحمل الخلاص.

بدأ الشباب يمهدون لتغطية انسحابنا من المنطقة، فقصفوا القطعة العسكرية القريبة منا حتى لا نكون في مرمى نيرانها، وانضمت إلينا قوة عسكرية بعد ساعة وقليل. حاولوا أن يدخلوا بآلياتهم وسياراتهم لكن ذلك كان صعباً جداً، فتقدموا قدر الإمكان ثم أكملوا سيراً. عندما وصلوا إلينا لم نصدق أعيننا، فبعد كل الرعب الذي تملّكنا والخوف الذي كاد يمزق أوصالنا، عاد احتمال النجاة وحلّت نشوة الفكرة مسلّمةً إيانا إلى قوة المؤازرة ليتكفلوا بإكمال المهمة. أخذ الشباب جثّتي الشهيدين، ونقلوهما مع الجرحى إلى الآليات، ثم عدنا إلى الضمَيْر مع بزوغ فجر نهار طال انتظاره حيث كانت صفحة جديدة لفصل جديد.

كان وقع المحاولة الأخيرة للوصول إلى الغوطة سيئاً على نفسيّاتنا. ومع الحمد الدائم بأن الله نجّانا من الموت المحتّم، إلا أنّنا يئسنا من إمكانية الدخول إلى الغوطة. وحدث أن وردت أخبار بأن الثوار يعتزمون إقامة معركة في القلمون لاسترداد القصير، الأمر الذي شجعنا على العودة.

بعد عدة أيام عدنا سيراً على الأقدام من جديد، عابرين بين النقاط العسكرية، ماشين ليلاً نهاراً حتى اهترأت أقدامنا من التعب. ومع حلول الساعة الثالثة فجراً، وصلتُ وطراد إلى يبرود، فاستقبلنا أهلي بحفاوةِ المشتاقين المحبّين، بعد أن أخبرتُهم أننا قادمون وتواصلت معهم طوال مشوار العودة.

# عيني تؤلمني

استيقظت باكراً مع طراد. كان قد سبقني فجهّز المتّة على أنغام فيروز. قال لي إنّ قلبه يحدّثه بأنّ شيئاً ما سيحصل... تحديداً، الشيء الذي لن أحبّ. سألته: «لماذا... ما الذي يجعلك تشعر بهذا؟».. أعَدْتُ عليه: «هل لهذا علاقةٌ بحلمٍ ما رأيتَه؟»...

* * *

احتدمت المعارك في يبرود، وهاجم مقاتلو حزب الله اللبناني المدينة. إبّان ذلك، حاولت أن أغيّر سياستي المعتمدة في القصير إعلامياً لنقل الصورة الحيّة؛ حيث قررت التّنحّي عن الصورة والتركيز على الأحداث لعدة أسباب، منها يأسي من جدوى ظهوري في الفيديوهات والتقارير. هكذا، أصبحت الجهة الإعلامية واحدةً، تبث الفيديوهات بمصدر مجهول بمساعدة تنسيقية الشباب في يبرود وطراد من دون أن يقف أحدٌ أمام الكاميرا.

بعد عدة أيام من المعركة، وبينما كنا نغطي ميدانياً هجوماً لحزب الله على منطقة «ريما» في أطراف يبرود، كانت الشمس تودّع السماء على أمل أن تبرد الاشتباكات. أراد الشباب العودة على دفعات، فسألونا إن كنا نودّ المغادرة معهم، وقد كنا بحاجة إلى ذلك

لاستكمال عملية تحميل الفيديوهات إلى الإنترنت ونشرها. نظر إليّ طراد ثمّ طلب أن أعود مع الدفعة الأولى على أن يلحق بي مع الدفعة التالية. وفيما تأملته قليلاً، لم أجد مانعاً من الموافقة على أن يهتم بنفسه ريثما يتبعني، ثم، زيادة في الحرص، أوصيت المقدّم في الجيش الحرّ، أبا أحمد، أن ينتبه عليه.

* * *

قبيل شهر،

**ـ بده يصير بفعل كان،**

ـ *فعل كان، ما فيها شي...*

**ـ يعني واحد منا بده يستشهد، يا أنا يا هو**

ـ يا مان، أنا شفت من أول مبارحة بالمنام إنه راحت عيني اليمين، لأ ما اليمين، راحت وحدة من عينيي، المهم راحت عيني،

ـ إذا اليمين بكون أنا،

ـ والله ماني متذكر أي وحدة..

ـ *الحمد لله إني ما من عيونك...*

**ـ إذا اليمين، بكون أنا.**

ـ وإنت شو هالإحساس إنه واحد منا بدو يموت، ما عأساس اتفقنا يا منموت سوا يا منعيش سوا؟

**ـ شو أمرنا بإيدنا؟**

ـ...

**- يا منموت رجال،**

- اتفقنا يا منموت سوا يا منعيش سوا. . .

**- هذا الشي رب العالمين بحددوا، ما أنت**

- لا إله إلا الله،

- . . .

- شو يعني؟

- عم ودّع، قالها ثمّ ضحكَ، وضحكتُ كأنّ الأمر سيظل مزحة إلى الأبد.

* * *

عدتُ إلى منزلنا في يبرود، وانتظرتُ طراد كي يجيء، إلى أن اتصل بي أحدهم من المشفى الميداني يخبرني بأن طراداً مصابٌ وقد نُقِل إلى المشفى. كيف ركبت السيارة، كيف قدتُها بسرعة جنونية، كيف أثقَلَتْ دقات قلبي شوارع يبرود حتى لكأنّها كادت تكسر ضلوعي؟ لا أدري. لا أذكر إلا أنني سمعتُ الخبر، ووجدتني أمام جسده الهامد. كان مغمضاً عينيه يستريح من عناء السنوات الأخيرة كلّها دفعةً واحدة. لكنّ القماش الذي يلفّ رأسه لم يعنِ لي شيئاً، وأيادي الأطباء التي تحاول أن تشدّني من كتفيّ لم تكن تفعل أكثر من أن تبعثر عزمها في الهواء. كان ذلك كله مزحة كبيرة، وكنت بفارغ الصبر أنتظر انتهاءها. حاولت أن أوقظه. رددتُ اسمه مراراً علّه يتعرّف إلى صوتي فيرأف بي ويستيقظ. سألته ما به. . . لمَ لا يردّ، ولمّا يئستُ من إجابته، حاولت أن ألطّف الجو. . . «طراد شِبَك؟ ردّ عليّ. . . بلا بلادة. . . ردّ عليّ حبّاب. . .». لكنّه خيّب آمالي في أن يجيب. كنتُ أريد منه إيماءةً تصدقني وتكذّب الأطباء.

قالوا إنّه لن يردّ، ولمّا لم يتركوني وشأني اضطررت إلى أن أصيح: «أنتو شو فهمكن؟ انقلعوا من هون!». لم أكن أعي ما أقول. إنّ إجابات الطبّ تبقى صحيحةً ما دامت تحمل الأمل بالشفاء، وإلّا فإنّنا ننبذها ونتعلّق بحبال الدعاء. عدتُ إلى أملي، حاولت مجدداً أن أوقظه. تقدّم الدكتور صالح سعدية إليّ بحكم المعرفة التي تجمعنا، وضمّني، كان يحاول أن يتفهّمني ويتمالك تصرّفاتي، ولمّا سكنتُ، أخبرني أن حالة طراد خطرة. لم أتحمّل كلامه فشرعتُ أدفعه عني وأخبره أنّه لا يفهم... «طراد رح يعيش غصب عنك!».. كنتُ أرى العالم كله يتآمر ضدي، وأنا وحيد لا سلاح لي، ولا صديق... بل صديق واحد على حافة الوداع... بعد ذلك انهرت وخارت قواي. لم يبقَ لي إلا الدعاء في حين تقرَّر نقل طراد إلى لبنان، لم أكن أصدق ما يحصل. كانت الصورة ضبابية؛ تحيط بي هالةُ أملٍ فيما أتخبّط بين الواقع والخيال. كأن المشاهد مستقاةٌ من كابوسٍ لا مفرّ منه، لم تكُ يداي تتسعان لأكثر من الدعاء.

على حسابي على فيسبوك، كتبتُ أطلب من الأصدقاء الدعاء لطراد حيث إنّ حالته حرجة، لعل دعاء أحدهم يكون السبيل لنجاته.

* * *

بعد نحو الخمسة أيام، استشهد[1]. ذهب طراد من غير أن أودعه، حيث شاء الله أن أسبقه في الأرض كي يسبقني إلى السماء، كنتُ أريدها كذبةً. زاد على الحزن حزنٌ، فلا القصير استُردّت من قِبل الثوار، ولا الأخُ بقيَ في الديار... أهله المتواجدون في منطقة عرسال قرروا أن يدفنوه هناك، وأنا في يبرود، في خضمّ المعارك،

(١) ٢٠ ـ ٢ ـ ٢٠١٤.

على مسافة تحول بين عناقٍ وقُبلة. كنتُ أريد أن أودّعه، وكان دخولي إلى لبنان يشكل مخاطرة كبيرة، فوقف أقاربي مطوّلاً يحذرونني ويحاولون ردعي، لكنني رفضت، وذهبت. لم أكن لأفوّت الوداع الأخير بعد أن فات الوداع الأول، مهما سيكون الثمن. دخلتُ ليلاً بطريقة غير مشروعة إلى حيث أهل طراد، تسبقني دموعي والبكاء، عانقت أفراد أسرته فرداً فرداً كأنّني آخذ عن أكتافهم نصيباً من الحزن أزيده على حزني. قلتُ لهم إنني أريد أن أكون أخاً لهم مكان طراد، فيما لم تتوقف دموعي عن الانهمار. كان لأمّ طراد صبر عجيب، فباشرت تهدّئ من روعي مع الباقين، ويهوّنون عليّ المُصاب كأنني وحدي المفجوع به. وبينما كنّا نتقاسم الوجع، كان جسد طراد البارد يبيت ليلته الأخيرة في ثلاجة الموتى.

صوّر ذلك ابن عمي آنذاك خِلسةً؛ لقائي الأخير بطراد، تقبيلي له، ورجائي الأخير بأن يقوم من نومته الأبدية. بعد ذلك تسرّب خبر دخولي إلى لبنان فاضطررت إلى العودة إلى يبرود بالطريقة ذاتها من دون أن أحضر الدفن، لأدخل في حالة اكتئابٍ طويلة الأمد.

أبكي طوال الوقت، لا أريد مقابلة أحد، ولا فعل أي شيء، وحين أقوم، أصوّر بعض المشاهد من غير رغبة في ذلك. سقطت يبرود، وانسحب الثوّار إلى جبال القلمون، ومضى شهرٌ على مغادرة طراد. اختفت ألوان الحياة دفعة واحدة، وبهتت معاني الأفعال والأشياء. وزاد على ذلك السكنُ في الجبال في غرف زراعية تتراوح مساحاتها بين الثلاثة والأربعة أمتار مربعة.

لمّا ساقَه الله إلى حفرة الموت، سحبني معه إلى شفيرها. كنت واقفاً على الحافّة أترنّح بين البقاء والفناء، غارقاً في السوداوية أتفكّر فيما بقي لي... لكن الدرب لا يزال طويلاً، يُحتّم عليّ الابتعاد

قليلاً عن الحفرة حيث إن رثائي وبكائي لن يعيدا غائباً. كان عليّ الاستمرار في حمل الرسالة، ولزاماً عليّ أن أمضي قدماً، علّني أعينُ على استبقاء الثورة حيّةً على الرغم من كل الخسارات والعذابات.

# رحلةُ الشوق

سكنت مع ابن عمي وأخي في غرفة لا تحتوي حتى على حمّام! بعد فترة، أعددتُ واحداً بنفسي... كانت الحياة صعبةً جداً في الجبل ما أخّر تأقلمي مع فكرة الفقد. لم نكن نرى بشراً إلا الثوار، حتى صرتُ أشتهي رؤية المدنيين؛ أي شخص غريب قد أراه وأنا في هذه الحالة كان سيكون مصدر سعادة غامرة. على هذا المنوال، قضيتُ شهوراً تدهورت فيها حالتي النفسية بدل أن تتحسن.

لكن في المقابل، داء الفقد كان الدواء. كان تفكيري بطراد وحبي له، وإيماني بأهمية الثورة الدافع إلى القيام من جديد. كنت أعلم أنّ حملَ اللواء لا يكون بالركون، ولم يكن طراد ليفرح إذ يرى رايتنا منكّسة. على الرغم من كل الألم، استجمعت نفسي وعزمت على إكمال المسيرة. إذا كان طراد يراني، فإنه لن يفرح إلا إذا مضيت قدُماً على الطريق الذي تعاهدنا على السير عليه.

* * *

لم تعد تتناسب القلمون مع دربي إذ خلَت من المعارك والأحداث. كان عليّ أن أغادر المنطقة وجرودها إن كنت لا أزال أريد أن أزيد على رصيد الثورة، عدا عن كوني مجرد إنسان يشارك

الأخبار على فيسبوك مثل أيّ سوريٍّ قذفته الأحداث إلى المغتَرَب.

بسريةٍ تامة، انتقلت إلى الشمال السوري، وصولاً إلى تركيا. استقررت هناك حيث أعددت برنامجاً سميته روح الثورة، قسّم إلى جزئين، واحد تم تصويره في إسطنبول والآخر في سوريا. وبين الجزء والآخر كانت تحلو الأيام ببعض الزيارات المختلسة للقاء الأحبة. إلا أن السعادة لا تدوم، كما لا شيء يدوم. في خيمةٍ من خيام عديدة آوَت النازحين السوريين إلى لبنان، شاء الله أن تصعد روح جدّي إلى بارئها، قبل أن يستأصل حسرةَ العودة من نفسه. حول سرير الوداع، كان بعضُ المحبّين يقفون الوقفة الأخيرة بجانب كبير العائلة، لكنّ المشهد بقي ناقصاً إيّاي.

لم تكتمل الصورة بعدئذٍ، أبداً.

* * *

«العلّة فينا، في الأسد القابع فينا، في داخل كل منا، ونصرنا مرهون هنا: ﴿حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾[1].

**تجمع قوى الثورة في كفرنبل**
**١٩ ـ ٤ ـ ٢٠١٣**

«هل ما زالت هناك نخوة عربية؟ نخاطب ضمائر الشعوب العربية. نحن لا نشكو ضعفاً، وإنما نذكر لعلها تنفعكم!»

**تجمع قوى الثورة في كفرنبل**
**٣ ـ ٥ ـ ٢٠١٣**

(١) «سورة الرعد» ـ الآية ١١.

«اصمدي يا قصير... فقد قصّرت الطريق إلى القصر»

**الثورة السورية ـ كفرنبل**

**٢٠ ـ ٥ ـ ٢٠١٣**

«في القصير سندفن فتيل طائفية ما زلتَ تشعله ودجالك الأخرق... في القصير سيولد الوطن»

**الثورة السورية ـ كفرنبل**

**٣١ ـ ٥ ـ ٢٠١٣**

# فجرٌ في كفرنبل

## كانون الأول/ديسمبر ٢٠١٤

منذ فجر الثورة الأول، رفرفت اليافطات عالياً في كفرنبل، وأخذت عباراتها صدىً عالمياً حيث كانت تُصيب عين الوجع. ومع مرور الوقت، تردد اسم أحد مُعِدّي تلك اليافطات على مسمعي مراراً، لكن لم يسبق أن التقيته. وعندما توجهت نحو الشمال السوري، تقاطعت أقدارنا فالتقينا. كانت بداية عهدٍ جديدٍ *رائدٍ*.

* * *

دخلت إلى سوريا من تركيا. كنت أنوي المرور بعدة مناطق بغرض التصوير لروح الثورة؛ ريف حلب، حلب المدينة، ريف حماه، الساحل، ريف إدلب. لم تكن إدلب آنذاك محررة بعد. وقد كان العزم أن أصور في جميع المناطق حيث إن حلقات البرنامج مختلفة ومنها ما يحتاج إلى تصوير خارجي، ولأن كفرنبل كانت معقِل المظاهرات الأولى، كان حريّاً بي أن أمرّ من هناك وأضيف إلى البرنامج بَصْمَتها، قصدتُها على أن أقيم فيها يومين لأصوّر كما فعلتُ بريف حماه وريف إدلب، وكنتُ أعرف فارسها رائداً[1] من

(١) رائد فارس.

خلال موقع فيسبوك، لكن لم يسبق أن التقينا من قبل، كانت فرصةً مناسبةً كي أتعرف إليه شخصياً.

مع رائد، دخلتُ المكتب الإعلامي في كفرنبل للمرة الأولى. مبنى من طابق واحدٍ، واسع السطح، ذو باب حديدي صلبٍ تتوزع الورود والنباتات في محيطه. تأخرت قليلاً عند الباب أخلع حذائي، فناداني أحد الشباب: «خلّصنا يا عرصة»، كنتُ قد رأيته لكن لمّا أعرف اسمه بعد، نظرتُ إليه مستغرباً لِمَ يناديني بهذا اللفظ! ضحِكَ، فدخلت ضحكته إلى خلجات قلبي. أتبَعَ كلماته: «يلا[٢] خلّصنا فوت فوت[٣]»، ففهمتُ أنّها طريقتهم في المزاح. كان ذلك خالداً[٤]، يفتح عينيّ على صداقةٍ نفيسةٍ ستزيّن الأيام التالية إلى حين.

لم يمضِ اليوم الأول والثاني، حتّى تعلّقت بالشباب هناك، وأصبح للمركز ـ الذي يتألف من غرفتين واسعتين ومطبخ صغير ومرحاض ـ مكانةٌ عزيزة في قلبي. وكأنّ كفرنبل قطعة هربت من حمص واستقرّت في ريف إدلب.. كان يسكن في المقرّ أعضاء الفريق الإعلامي: رائد، خالد وحمود، وانضم إليهم لاحقاً عبد الله؛ الثائر الودود الملقّب بالتمساح. وعلى الرغم من لطفهم جميعاً، وأرواحهم المرحة التي طَيَّبت أيامنا المريرة، إلا أن صِلتي الأساسية كانت برائد.

كان فارق السنّ واضحاً، ما جعله الصديق والأب والرفيق والمرشد. نبتت في قلبه زهرة الثورة كما أزهر هو في كفرنبل جنوب

---

(٢) هيا.

(٣) أدخل.

(٤) خالد العيسى.

مركز محافظة إدلب. ومع أن بداياته كانت مع الطبّ، إلا أنه أوقف دراساته وتوجه إلى لبنان للخوض في تجربة عمل جديدة، ليعود في التسعينيات إلى كفرنبل مجدداً حيث استقرّ وأسس عائلةً أعالها من عمله في العقارات وتسيير المعاملات.

وكما لو كنا نعرف بعضنا، تآلفت قلوبنا بداية الثورة إذ نبضت بالإيقاع ذاته. قام بالمشاركة مع شبيبة المدينة بتنظيم المظاهرات السلمية فيما كانت سلطات النظام لا تزال باسطة أيديها على مدن محافظة إدلب، ولها مقرّ في وسط كفرنبل. شيئاً فشيئاً، توجّب على رائد وحمود وخالد وعبد الله وغيرهم الانسحاب إلى قرية جبالا وما يحيط بها من قرى حتى يصبحوا بمنأى عن أيدي النظام، فيجهزوا للمظاهرات ويعدّوا العدّة من دون ترهيبٍ أو تشويش. في النصف الثاني من سنة ٢٠١٢، لم يعد لذلك حاجة حيث خرجت كفرنبل نهائياً من قبضة الأسد، وأصبحت قِبلة لأنظار المجتمع الدولي بلافتاتها المناهضة للنظام، حيث كثر تداولها باللغتين العربية والإنكليزية. كيف لا والعقلُ المدبر، رائد؟!

كنتُ أنتظر يافطات كفرنبل بفارغ الصبر لأشاركها كما الناشطون في العمل المدني، وأذهلَ دائماً بالإبداع والوعي التي حملتها الرسائل المضمّنة، الطريفة الساخرة أحياناً كثيرة. ومتى اهتزت إبرة البوصلة، كانت كفرنبل تثبّتها بضحكة ترسم للجميع روح المدينة المرحة على الرغم من كل الأسى.

ولم يكن العمل لينجح بأفراد، لكن لا شكّ أنّ منهم مستقطبين للشباب، معزّزين للحماسة، مثبتين للهمم. هكذا كان أفراد الفريق الإعلامي، كلٌّ على طريقته. فرائد مثلاً أدار راديو فريش ومراكز مزايا النسائية ومراكز دعم نفسي للأطفال ومركزاً للتدريب ومراكز

طبية جمعها كلها تحت منظمة اتحاد المكاتب الثورية، دافعة الصورة المدنية الثورية إلى الواجهة من دون تردد ولا مجاملة أو مداهنة. كانت النتيجة طبعاً محاولات اغتيال أثمرت إصابة بالغة في صدره من قبل عناصر *لداعش*. لكنّ ذلك لم يزده إلا إيماناً وثباتاً على طريق الثورة.

كان تواجدي اليومي معه، وانسجامنا لفترة غير قليلة يكشف لي فرصاً حَظِيَ بها وتضحياتٍ قدّمها، كانت لتجعله يعيش حياة هانئة وارتياحاً مادياً لسنوات، لكنه لم يفضل مدينةً ولا وظيفةً ولا راتباً على حياته في كفرنبل في سبيل الوطن والحرية والثورة.

* * *

بدأت الجِلسة تحلو رويداً رويداً، والتشابه بين أفكاري وأفكار الفريق الاعلامي التي تطفو فوق رؤوسهم يبدو جلياً ساعةً بعد ساعة. لذا، قررت أن أبقى حتى تمام الأسبوع. لكنّ الأسبوع جرّ أسبوعاً، والحديث استجلب آخر، وروح النكتة لم تبرح تكسر شحوب الأحوال مموّهةً فكرةَ الذهاب إلى الشمال.

عدتُ أشارك في العمل المدني، وأسير في المظاهرات. ثمّ لما وجدوا أن إقامتي قد تطول، خصّص الشباب لي غرفة فاستقررت عندهم. ومع احتكاكي بهم، توطدت صداقتي مع خالد، خصوصاً أنّ وضع رائد الصحيّ لم يسمح له بمرافقتي دائماً إلى تغطية الأحداث. بدأت معارك وادي الضيف والحامدية شمالاً فاقترح رائد أن يساعدني خالد على التصوير، ونصائح المرشد والصديق لا تُردّ...

مع مرور الأيام، أصبح للصورة ضوابط جديدة: أينما وُجد هادي يوجد خالد، وأينما وُجد خالد يوجد هادي. كان ظلّي في

النهار، يقف خلف الكاميرا كلّما وقفت قُبالتَها، وأنيسي كلّما اكفهرّ الليل. كانت الحياة تحلو بوجوده على الرغم من كلّ المرارة، وكانت شُعلةُ الثورة تزداد اتّقاداً كأنّها تقول لطراد: لا تخفْ، لم تذهب دماء الشهداء سُدَى.

تجاوزَت مشاويرنا العمل؛ صرنا نخرج معاً لنرتاح، ونزور الأصدقاء، ونأكل، ونغطي المعارك. شهدنا تحرير إدلب المدينة، وتحرير أريحا، وتحرير منطقة المسطومة، وتحرير حواجز ومعسكرات... كنّا نستيقظ باكراً جداً، نُمضي أياماً طوالاً في توثيق المجازر... نركض معاً من حارة إلى حارة ومن ساحة إلى ساحة ومن مشفى ميداني إلى آخر... يقفُ هو ممسكاً بآلة التصوير، فيكونُ عيني، وأقف أمامه فأكونُ صوتَه؛ مرّة ببحّة، وأخرى بلهاث، وثالثة يصحُب حديثنا دمعة. كنّا نحاول على الدوام أن نوصل أنين المدنيين الذين فُجعوا ونُكّل بهم أشد تنكيل... نقف أمام الركام ونقول للعالَم إنّ صوراً حقيقية هنا قد تكون قاسية الوقْع على قلوبهم الواهنة، بينما يقبع تحت الأنقاض أشخاصٌ تحترق دواخلهم من دون أن تَقْوى أجسادهم على الحِراك.

بحّةُ صوته كانت أخاذة، كما ابتسامته، فيه عنفوان الشباب الثائر، حيث ترك مقاعد الثانوية العامة ليلحق ركب الثورة في بداياتها، ليصبح طالباً في مدرسة الانتماء إلى الحرية والوطن. شرب من منهل الثورة، وواظب على التخفيف عن أصدقائه في محنتهم كما لو أنّه معافى منها. وكما كلُّ ابنٍ للثورة وقّعت على جسده برصاصة استقرت في كتفه أيام المظاهرات السلمية.

* * *

أما حمود فقصةٌ بدأت فصولها مع الثورة باكراً جداً. كانت

بصماته على الجدران شعاراتٍ مناهضة للأسد قبل أي حراك، ثم تطور إلى أن أصبح قائداً للمظاهرات التي توالدت من رحم الإيمان بالحرية. فيلسوف اللحظة المفعم بالحيوية هو. كانت ألفاظه السهلة تسخر من كل شيء حتى يسهُل، ومخيلته التي كانت تستحضر صور الزعماء والمجرمين في منزلنا أو في عقر دارهم، سهلت لنا تحوير السيناريوهات المقيتة لتلطيف الأجواء؛ كما لو أن الأسد مثلاً مجتمع مع قادة الفصائل الثورية على مائدة غداء تكريماً لمساعيهم المبذولة للاقتتال فيما بينهم وتشتيت القوى بدل التضافر ضده!

ومع أن آلة التصوير الخاصة به كانت الأسرع لتحيي في الذاكرة من سينقطع ذكره، إلا أنّه رجل خوذة بيضاء في الوقت عينه. يسعف من لم تردّ عنه الكاميرا قدَراً، لكنه يأخذ بالأسباب. شاهد على بحار الدم في المدينة التي يعشق، لكن أمله بانتشال الناجين ظلَّ مستمراً من دون انقطاع.

كانت جغرافية وجه رائد وصوت حمود وضحكة خالد أجزاء لصورة واضحة واحدة: روح الثورة في كفرنبل.

# كابوس طويل

## تشرين الأول/ أكتوبر ٢٠١٤

ولأنّ في الحياة من هذا وذاك، الحلو والمرّ، والعلقم والعسل، كانت بسماتنا تخفف قليلاً من وطأة الليالي الثقيلة. ومع أن الليل لم يزل يرخي سدل ظلاله على أطراف النهار، إلا أن أُنسَ الرفقة كان الرقية لآلام كواهلنا المثقلة. ضحكنا كثيراً، وكان بُعدُ الأحباء والمحِبّين عدوّنا الأول في طريقنا الوعر. كان علينا أن نبقى معاً متكاتفين، نصرخ بصوتٍ واحدٍ يشقّ عنان سماء الوطن قبل سماوات العالم الرقمي... وكان لِجرح أحدنا أن يؤلمنا جميعاً، فيطيب أسرع. وكان ما كان بيننا ـ نحن الأصدقاء ـ مما لا يسَعه كلامٌ ولا يُنصفه نصّ ولا يوصله حديث.

وذات يوم، بينما أنا في تركيا لعملٍ، اتصل بي خالد يخبرني أنّ حمّوداً ورائداً مفقودان. خرجا إلى سراقب ثمّ انقطع التواصل معهما، ويرجّح أنهما إمّا على أطراف كفرنبل أو في معرة النعمان أو في سراقب. انتظرنا يوماً كاملاً... كان يطولُ الوقت كلّما تقدم بنا، وكأن بركةً حلّت به ولم تجد إلى البُعد عنه سبيلاً... وانتظار القادم فيه من الهمّ ما فيه، فكيف بمن لا يُعرف لهم مصير! لم يصل عنهما أي خبر، فصرتُ تارةً أخمّن أنّهما مخطوفان، ثمّ أخاف أن يكونا

مقتولين، ثمّ أدعو الله أن لا يكونا مسجونين تلسعهما سياط العذاب... كان جرح فقْد طراد ساخناً، يَدُرُّ الدموع كلّما لاح لي ولو من بعيد خاطِرٌ عن أذى أو موت. قلتُ: «هذا حظي، وأعرفه! لا بدّ من أنّ مسيرة رائد قد انتهت على أطراف سراقب ولن يعود لطريقي صاحبٌ ولا رفيق. لن أجد لروح الثورة مرآةً مثله، ستمّحي بقايا الصورة إلى الأبد».

فجر اليوم التالي تواصلتُ مع خالد لعلّه يبشّرني بعودتهما، لكنّ جعبته كانت خاليةً من أيّ جديد. كلّ ذلك كان أسوأ تحت سماءٍ أزرقُها لا يشبه الوطن، وإن تشبّه به. ضاق صدري وصرتُ هائماً على وجهي لا أعرف لكَربِي خلاصاً، فقررت العودة إلى سوريا علّ حيلةً ما هناك تنتشلهما من الغياب. حجزت مقعداً لي في طائرة متوجهة من إسطنبول إلى محافظة هاتاي على الحدود التركية ـ السورية، كاد الطقس العاصف أن يلغي رحلتها، ثم تقرر تأجيل الرحلة بدل إلغائها إلى أن يتحسن الطقس قليلاً. كان ينقصني أن تتعطل الطائرة حتى أوقن ألا مجال إلا السَّيْرُ المجنون إلى هناك... صرتُ أحدّث نفسي، لا أستطيع أن أعلّق هنا بعيداً جداً حيث ما في يديّ إلا التنظير والانتظار. وبعد أن تلظّيتُ بجحيم الوقت، جاء الخبر البارد ليَحُلَّ عسيرَ الأمر؛ تقرر إطلاق الرحلة أخيراً. صعدت مع الركاب إلى الطائرة، لكنّ الإقلاع تأخر حتى ظنّنا أنّنا لن نطير، ولمّا جاء الفرج وطرنا قليلاً، شارفت الطائرة على فقدان توازنها وعُمّمت خطة الإخلاء على الركّاب المذعورين لاحتمال وقوع الطائرة. أضيئت مخارج الطوارئ، وصار قائد الرحلة يكلّمنا باللغة التركية، ولم يتمالك المسافرون أنفسهم فصارت الصيحات ترتفع وتزداد وتيرتها شيئاً فشيئاً إلى أن أعادنا طاقم الطائرة إلى وضعية الاسترخاء. بين ضوضاء المشاعر والأفكار ورداءة الطقس والجو

المشحون، حطّت الطائرة أخيراً في مطار هاتاي حيث كان ينتظرني صديق ليقلّني بسيارته إلى المعبر، وهناك، لكن على الطرف الآخر، كان خالد وصديق آخر اسمه عليّ ينتظرانني. وصلت المعبر عند الخامسة والنّصف مساءً، فوجدته مغلقاً، وكي لا يطول الانتظار أكثر، وجدتني مضطراً إلى التواصل مع أحد معارفي الأتراك هناك ـ للمرة الأولى ـ للسماح لي بالعبور استثنائياً في ذاك الوقت موضحاً له ضرورة الأمر، ثم اجتزتُ المعبر لأجد صديقيّ بالانتظار. كانت لديهما معلومات عن تواجد رائد بسجنٍ لجبهة النصرة في معرة النعمان ما حدّد دائرة البحث واختزل خطوات كثيرة مقيتة.

انطلقنا من باب الهوى إلى معرة النعمان نغوص في الضباب وننفذ من الاصطدام بسيارات الآخرين بلطف من الله. وصلنا إلى معرة النعمان عند الثامنة مساء، وكان المتبقي من رحلة البحث إيجاد مقرّ جبهة النصرة الذي يتواجد فيه رائد وحمود. ومن مقرّ إلى مقرّ سِرنا حتى وجدنا سيارة رائد أمام واحد من المقرات. ترجلت من السيارة ودخلتُ لأسأل عنهما. عرّفت بنفسي فأهّل الحاضرون بي. قلت: أصدقائي معتقلون لديكم، قالوا: من أصدقاؤك؟ قلت: «رائد فارس وحمود جنيد، أريد أن أراهما»، فاستمهَلوني دقائق ثمّ قَدِم أحد رجال الأمن لديهم وأخبرني أن حمّوداً وحده موجود. فهمتُ ما يُحاك فوراً، كان رائد مطلوباً بشدة لديهم ولا مشكلة في التنازل عن حمود. هززت رأسي نافياً وقلت: مستحيل، إما الاثنان هنا أو لا أحد. وبين شدّ وجذب، ونفيهم وإصراري، اعترفوا أخيراً أن رائداً موجود لديهم، ولكن اسمه غير مسجل لنِيّتهم تحويله إلى سجن «حارم» التابع لهم، حيث غالباً سيتم الحكم عليه بالإعدام. انتفضتُ لمّا عرفت الحقيقة، وصرتُ أكلّمهم بعصبية بالغة، أطلب إخلاء سبيل الاثنين تارة، وتارة أخرى أتساءل حول التّهم الموجهة إليهما.

بدأت المعمعة واختلاق الأعذار، فأخبروني أولاً أن الاثنين عميلان للنظام، فرفضت كوني أسكن معهما وهذا يعني أنني غالباً متورط معهما إن كان هذا الشيء صحيحاً، ثمّ اختلقوا كون رائد يكره الإسلام، ففتحت لهم جوالي وأريتهم صورته وهو يصلي جماعة معنا، مستنكراً أن يكون المصلي كارهاً للإسلام!

سكتوا أخيراً. قالوا: اقتنعنا، ولكن الأمر يحتاج إلى قرار قاضٍ! كلّما أنهيت نقاشاً خرج لي آخر ليعزو الأمر إلى من أعلى منه! كنتُ أدور في حلقة يكاد يفضي آخرها إلى أولها كلّ مرة! كنا قد وصلنا الساعة الثامنة مساء إلى المقر حيث وجدناهما، ولما وصل القاضي أخيراً، وافق على إخراج حمود فوراً وإمهالنا يومين قبل إخلاء سبيل رائد. لكنني لم أرتح للموضوع، حيث إن احتمالات الغدر برائد واردة جداً، خصوصاً أن اسمه غير مسجل لديهم. لم أوافق. طال النقاش واحتدم، وصرت أهددهم بحملة شعبية عليهم، ثم أطلبُ الإفراج عنهما مقابل ألا نفعل شيئاً يضر بهم لعلّهم يرأفون بنا ولا يزيدون الأمر سوءاً. على مضض وافقوا بعد ربع ساعة على أن يمكّنني أنا وخالد من رؤية رائد، فغابوا قليلاً ثم أحضروه برفقة رجلين ملثمين ضخمين. ضممته فوراً وهممت بأن أهمس له بما سمعت من تهم باطلة فقام الملثمان بإبعادي عنه بعنف ومنعوني من التحدث إليه. أعاد ذلك صورة النظام الظالم إليّ، فنَعتّهم به.

*ـ إنكم مثل نظام الأسد ومثل داعش ومثل أي نظام شرير في العالم.*

*ـ لا تشبّهنا بالنظام المجرم!*

*ـ بل إنكم لا تختلفون عنه في شيء! سوف أفضحكم، والله سأفضحكم!*

تدخل القاضي مهدئاً الطرفين وقال:

ـ *سأكلم رائداً قليلاً وآخذ قراراً بحقه.*

جلس الاثنان، وتحت الضغط أقرّ القاضي إخلاء سبيله مع حمود، على ألا نأتي بذكر الحادث على الإعلام. هكذا، خرجنا بذكرى محزنةٍ انتهت بحمد الله على خير عند الثانية بعد منتصف الليل. لم يكن أي شيء حينها أثمن من عودتهما سالمين.

* * *

*«للثورة وقذائف الموت... لشظايا الليل المتشرّد... لصور الشهداء... وعدسات الكاميرات... لآخر مدى في ثورتنا! سأفتح جروحي وأسكن في عذاب غيابك يا أغلى أصحابي».*

* * *

مضت الأيام جميلة حلوة في كفرنبل على الرغم من كل القهر والألم الذي فيها. كانت الشلة، خالد ورائد وحمود، تعطيها لذة ونكهة تزيد أوجاع ذكراها. اعتدتُ على روتين جميل في العمل المدني مع رائد؛ مراكز دعم للطفل وأخرى للتنمية **المجتمعية**، ومركز للتدريب كنت مسؤولاً عنه، حمَلَت إحدى قاعاته اسم طراد، والثانية اسم الشهيد غياث مطر رحمهما الله. تخلل كل ذاك تغطياتنا الميدانية، خالد وأنا، لجرائم الأسد المستمرة بحق المدنيين في الشمال السوري. ننتقل من قرية إلى قرية، ومن مدينة إلى مدينة... نبذل قصارى جهدنا علّ صوتاً يصل. لم يعد نظام الأسد وحدَه عدونا، بل كل جهة كنا نحاول فضح ممارساتها الظالمة بحق المدنيين اتخذتنا أعداء لها؛ حزب الله اللبناني، إيران، الميليشيات العراقية، وداعش.

* * *

# يا كافر

## كانون الثاني/ يناير ٢٠١٥

طرق الشهر الأول من عام ٢٠١٥ بابنا، ثم توالت الطَّرقات. كنا نتناول طعام الفطور معاً، خالد ورائد وحمود وأنا، لمّا دُقّ الباب بعنف، وقبل أن نفهم ما يحصل تماماً توالت الدّقّات وزادت قوّة حتى اخترقت الباب إلينا. انخلع الباب كاشفاً عن رجل ملثم يحمل بارودة ويأمرنا بعنجهية أن نرفع أيدينا إلى أعلى، وبنظرة سريعة كان بوسعنا أن ندرك أن المكان بأسره مطوّق بمدافع ورشاشات ١٤,٥ وأسلحةٍ كأنّ المستهدَف جبهة عسكرية وكأنّ أطباق الفطور بزيوتها ونواشفها ساحة معركة بجيش عتيد! للوهلة الأولى لم نعرف من هم ولا ما يريدون... وقف أحدهم بالباب حاجباً عنّا ما خلفه ومنعنا من الخروج، ثم اقتحمت مجموعة منهم مقرّ الإذاعة الأساسي المحاذي لمكتبنا. كنّا نُدير نشاطاتنا المدنية من المكاتب الأخرى، وحدّثت نفسي أنّهم سيعرفونني حالما يروننني، ما قد يشفع لنا فنوقف التّعدّيات. كانوا قد انتشروا في مشهدٍ مرعب مماثلٍ لاقتحامات مخابرات النظام، فتوجهتُ إلى العنصر الواقف بالباب وأخبرته أنني أريد الخروج لكنّه رفض فخرجت رغماً عنه وتوجّهت إلى عنصر ملثم هو الآخر قائلاً: «أنا هادي العبد الله من حمص، ممكن أعرف مين

أنتو وشو بدكن بالضبط؟!»، لكنّ ضربة من قبضته غافلتني، وسمعته يصرخ ويهدد إذا قمت عن الأرض: «عم تسبّوا الرسول يا كافر!». لم يُبقِ لي صبراً أستنفده، فوقفت مستنفراً وأنا أستنكر نعته لي بالكافر وادّعاءه العاري من الصحة! صرتُ أضربه ثمّ يردّ فأردّ... وتتابعت اللكمات، وبين الواحدة والأخرى كنتُ أصرخ: «مين رئيسكن!»، ثم «مين قائد هالحملة؟؟» وفي هذه الأثناء كان خالد يراقبني من بعيد. جنّ جنونه لمّا رآني أتعرض للضرب، فتوجه من فوره إلى حيث المسدس الشخصي الوحيد في المكتب ـ عيار ٧,٥ ـ وفي نيّته تخليصي به. هرع رائد إليه يهدّئه كي لا يزيد الورطة سوءاً فننقلب من ضحايا إلى مُدانين، وإلى ذاك الوقت كان قائد الحملة قد أفهمنا أنهم في المكان الخاطئ لخلل ما أو سوء توجيه، بعد أن دبّ الرعب في أوصالنا وعاثوا الفساد. كانت حجّتهم أن وجودهم في هذا المكان محض صدفة، وأن الهجوم حدث خطأ... كلّ الأبواب المخلوعة والخراب الذي خلّفوه وراءهم كان برأيهم غلطةً تُمسح بأقل من اعتذار مصحوب بحجّة واهية. لاحقاً، علمنا بأنّ مجموعاتٍ أخرى تابعة لهم قد اقتحمت مراكز مزايا التي تديرها أم خالد، غالية، والتي تتبع إدارياً للمكاتب الثورية التي يشرف عليها رائد. وإبّان اقتحامهم، أرعبوا النساء ونهبوا المراكز وكسروا وخربوا ما قدروا عليه. ولكنّ أيّ محاولة لتقويض العمل المدني لم تكن لتقف في وجه مُضِيِّنا قدُماً، بل إنّ كل هجوم كهذا كان ينقلب تأييداً شعبياً ومساندةً على نطاق أوسع.

* * *

# في سجن «الثوار»
## أيلول/ سبتمبر ٢٠١٥

بين الفينةِ والأخرى، كانت تهبّ رياح المأساة. وكلّما صفا الجوّ قليلاً، ومالت الشمس بحنوّ إلينا، كانت تعصفُ أحداثٌ تعيدُ الصورة الكبيرة إلى حيث يجب، فتضعها نصبَ أعيننا. فالحرب هي حيثُ يتساوى سوطُ الحرّ مع سوطِ البردِ، وسوطُ الخوف مع سوطِ الأمل، يقطِف فيها الموت رؤوس اليافعين والمسنين دونما تفرقة، وتوشم ذكراها على أفئدةِ الصغار والكبار على حدّ سّواء.

في أحد الأيام، وصلني أن طبيبة، ممن قدّموا الكثير في بداية الثورة وإبّانها، اتّصلت من مدينة «سلمية» في ريف حماه تُبلّغ عن اختفاء والدتها وولديها في مدينة إدلب. وكانت الشكوك مثارةً حول تواجد أفراد هذه الأسرة عند أحد الفصائل، ومن ثَم فإن المطلوب تدخّلي لإيجادهم والسعي للإفراج عنهم. خرجتُ ورائداً نبحث ونفتّش ونتحرّى حتى توصّلنا إلى كونهم متواجدين في سجن «الزعينية» في ريف اللاذقية، فتوجّهنا من فورنا إلى هناك حيث عرّفتهم على نفسي ورحّبوا بي، إلى أن أخبرتهم أنني أبحث عن أسرةٍ وأريد معرفة التّهم الموجهة إلى أفرادها. كانت تلك الأسرة مطلوبة للنظام الأسدي وقد ألقي القبض عليها من قِبل الفصيل على

الحدود بينما كانت تحاول الهرب إلى تركيا من إدلب. حاولت استعطافهم بالكلام علّهم يخلون سبيل الثلاثة؛ حيث كانوا رافضين للفكرة نهائياً. كان الضغط الشعبي سلاحي دائماً، وطالما أنّ القضية محقّة، فإنّ المنتصرين لها سيكونون كثراً وقد يسببون المشاكل للفصيل. هدّدتهم بأصوات الناس، وبعد الأخذ والرّدّ وافقوا على أن ألتقي بالجدة والحفيدين. كان وضعهم مُزرياً حيث ظروف السجن سيئة كأنّهم رهائن لدى النظام لا لدى الثّوّار ـ وهذا يحسب خطأً وقعتْ في محاذيره بعض الفصائل ـ كان ذاك المشهد مريعاً؛ إذ يعيد بوصلة الثّورة من مساندة الأطراف والفصائل إلى مساندة الحق أينما وُجد، ضد الباطل كيفما تشكّل.

أوّل من رأيتُ كان الجدة، جاءت مذعورة بعد التعذيب الذي ترك عليها آثاره. كانت النيّة أن يقدّموها للنظام مقابل تسليمهم نساءً معتقلاتٍ هنّ زوجات مقاتلين في الفصيل ذاته. كانت الفكرة مريعةً، أن تتمّ مقايضةُ بريئةٍ كثمن لأناس بريئين هم الآخرون...! والأسوأ من ذلك أنّ النتيجة المحتّمة هي موتها أخيراً تحت سياط التعذيب الهمجيّة أو في أحسن الحالات إعداماً مباشراً. رفضتُ بشدّة الصفقة المخطط لها، بينما أحاول طمأنتها. أخبرتها أنني من طرف ابنتها الطبيبة وولديها ما جعلها ترتاح لي قليلاً. ثمّ بعدها، أُحضِر الولدان؛ ذات الثلاث عشرة عاماً ترتجفُ طفولتها هلعاً، ومن ورائها *أخوها*. أخبرتهما أنني مبعوثٌ من قبل خالهما ووالدتهما، وأنني لن أتركهما أبداً. وقتَ اطمأنت لي *الطفلة*، عانقتني بشدة إذ سمعتْ اسم خالها فنزلت بالتزامن مع دموعها دموعُ رائد الذي ما رأيتُه قبلاً يبكي! خرج رائد غير محتمل الموقف، وبقيت أهدّئ الولدين وأطبطب عليهما إلى أن انتهى اللقاء. كانت بعدها العودة إلى محتجزيهم. طلبت إخلاء سبيلهم لكن طلبي قوبل بالرفض، بحجّة أن «الأمني» يجب أن يوافق. قلتُ: «خيراً، أين هو؟»، قيل: «غير

موجود». قلتُ: «نذهب إلى منزله»، قيل: «تأخر الوقت وهو في الجبهة ولا يمكن الآن أن تروه»، وحجج أخرى من هذا القبيل أجّلت لقاءنا به لليوم التالي صباحاً. كان السجن يبعد عنا ساعتين بالسيارة فانطلقنا صباحاً عند الثامنة ووصلنا عند العاشرة. عارض بادئ الأمر كما فعل الذين من قبله، ثمّ بعد أن أوْرَدْنا ذِكر الحملة الشعبية هوّن الأمر وبدا كأنّه سيقبل إلى أن أحال الأمر إلى قائد الفصيل في اللاذقية؛ إذ لا يستطيع هو ـ حسبما قال ـ أن يبتّ في الأمر من دون علم منه! وكما العادة، حين سألنا عنه قيل: «هو خارج سوريا ولن تستطيعوا لقاءه»، ما العمل؟! بعد أخذٍ وردٍّ، وقيل وقال، أرشدونا إلى نائبه ثمّ مغمغوا الأمر مؤجلين اللقاء إلى اليوم الذي يليه.

أشرقت شمس صباح اليوم الثالث والأسرة ما زالت محتجزة، والقلوب كلّها تأملُ لحظة اللقيا. توجّهتُ ورائداً إلى السجن حتى نلتقي بالجدة والطفلين لنطمئنهم لكنّ المسؤولين في السجن رفضوا تكرار الأمر، وما كان لنا إلا أن نتوجه إلى نائب قائد الفصيل علّها تُفرج. أخبرناه أنّ الأمر منتهٍ إليه ونحن متأمّلون منه العفو عنهم، ثمّ زادت بي الحميّة فأخبرته أن ما يفعلونه ظلم مشابه لظلم بشار الأسد، فما أعجَبه ما أقول، واستنفر وثار وطلب ألا أشبههم به... وصارت كلمة منّي تشعله وأخرى منه تقودني إلى الجنون فما كان منه إلا أن حسم الأمر بأنّ الأسرة لن تخرج من السجن أبداً.

خرجنا من فورنا إلى منطقة باب الهوا حيث القائد العام للفصيل كي نجتمع معه، لكننا لم نستطع مقابلته بسهولة، ثم بعد الإلحاح استطعت الالتقاء بأكثر من قائد وأكّدت لهم أنني لن أترك هذه العائلة قبل أن يفرجوا عنها وأنهم لم يتركوا لي حلاً سوى شنّ حملة عليهم. أجابوني أخيراً أنهم وافقوني الرأي بخصوص العائلة لكنّ «قطاع اللاذقية» رافض لإخلاء السبيل وأنّ معاكستهم قد تؤدي إلى

اشتباك هم بغنى عنه، فاتفقنا أن يحضروا الأسرى الثلاثة إلى سجن «باب الهوا» ويتم الإفراج عنهم من هناك بقرار قاضٍ. كانت الخسارة يوماً آخر للطفلين والجدة بعيداً عن هواء الحرية، ولكن تمّ بعد ذلك نقلهم إلى باب الهوا حيث صرنا نترنح بين حضور القاضي وغيابه وتأجيله ومماطلته حتى صارت الساعة العاشرة مساء. كان تحرّكنا أنا ورائد صعباً في ظل الأوضاع الأمنية، وسُمِح لنا أن نلتقي العائلة فجلست معهم أؤكد لهم أن الأمور على ما يرام وأنّهم سيخرجون عاجلاً أم آجلاً، ثم اتصلتُ بالخال عبر الإنترنت ليتكلموا معه ويطمئنوا على بعض. اتفقت أنا ورائد على أن يغادر فيما أبقى مع العائلة في السجن، ووصّيته أن يكتب منشوراً على وسائل التواصل الاجتماعي يوضح فيه أن هادي العبد الله يضطر إلى النوم لأول مرة في السجن وأنه مع الأسف سجنٌ محسوب على الثورة. كان ذلك نهاية الطريق، ولم يعد لنا من خيار غيره... انطلق رائد في الخطر ليلاً وحيداً مطلوباً لعدة جهات، عائداً إلى المنزل تاركاً إياي والأسرة في السجن.

بعد مغادرة رائد بساعة إلا قليلاً، كنت ما زلت في طور النقاش مع القادة المتواجدين، أنعتهم بالظلم وأُقارِبُهم للنظام وأبرئ الثورة منهم لمّا رآني القائد العام للفصيل صدفة، فاعتذر مني معلّلاً بأنّ الأمر مجرّد سوء فهم وأنني أستطيع أن أخرج مع العائلة! كلّمتُ من فوري رائداً وأخبرته بألا يضع المنشور، بل يقفل راجعاً ليصطحبنا إلى المنزل. أوصلنا العائلة إلى مقرّنا حيث استحمّوا وأمّنّا لهم ثياباً ساعدتنا على إحضارها أم خالد... كان ذلك الوجه المشرق للثورة يرمّم الكسر الذي أحدثته، ويبلسم الجرح الذي ترك أثره على أبدانهم. رويداً رويداً انقلب ندم الأسرة على تأييد الثورة إلى فخر مجدداً، واستحقّت أن يهجّروا كرمى لها. خلال مدة استضافتنا لهم، التقوا بخالد وأمه واطّلعوا على نشاطاتنا المدنية ثمّ أمّنّا لهم طريقاً إلى تركيا حيث لمّ شملهم واجتمعوا من بعد الفراق بأحبائهم.

# مُصادَر: ممنوع الاقتراب

لم يستطع النوم أن يطبق جفنيّ قبل الخامسة فجراً. كان العمل المكدّس يشغلني إلى وقت متأخر، ثمّ استسلمتُ أخيراً لإغفاءة لم تدم أكثر من ساعة ونصف، حين أقبل خالد يهزّني عند الساعة السادسة والنصف صباحاً يخبرني على عجل بأن المقرّ مملوء بالمسلحين. كنتُ مخدّراً بالكامل من التعب، ولكن لم تكن عبارة «هادي قوم قوم المقر مليان مسلحين» لتتركني نائماً... وريثما رفعت رأسي الثقيل وحرّكتُ أطرافي المتصلّبة، كانت المنطقة مطوّقة بالكامل. نزلت من غرفتي في الطابق العلوي إلى أسفل، فوجدت المقر مطوقاً بالفعل. كان المسلحون يضعون أيديهم على كلّ شيء تقع أنظارهم عليه، وينقلون بتفانٍ المعدّات إلى سياراتهم... بدؤوا بمعدّات الراديو ثمّ انتقلوا رويداً رويداً إلى المكاتب الأخرى. دخلوا إلى غرفتي وانقضّوا على كل ما فيها من آلات تصوير وحواسيب محمولة... لم يسلم أيّ جهاز يرونه منهم... ومع أنّنا كنا في فصل الشتاء، لم يثنِ ذلك أحدهم عن حمل المروحة لسرقتها. نظرت إليه وأنا أضحك، قلت له: «برافو عليك برافو! خذ شي ينفعك عالقليلة!»، التفت إليّ للحظة وعبس ثمّ أكمل مساره من دون أي تعديل. لكن أسوأ ما في الأمر كان أن وضع أحدهم يده على آلة

التصوير الخاصة بطراد ﷺ... صحت بهم: «خذوا كل شي بس اتركوا هاي أغلى ما عندي...»، رفضوا مؤجلين اعتراضي إلى مراجعةٍ لاحقة بعد أن يوضبوا مغتصباتهم في مراكزهم. كانت آلة التصوير آخر ذكرى منه، وفيها آخر ما صوّر قبيل استشهاده. كانوا يمسكونها بوحشية، بينما أصابعهم تغرز في قلبي.

دامت عملية النّهب نحو ساعتين مع استمرار احتجازنا في الداخل. بعد ذلك، صرف المسلحون الموظفين وأبقوا عليّ وعلى رائد فقط. أمسكوا به وغطّوا عينيه ثمّ همّوا بأخذه إلى السجن فاستوقفتهم. قلت: «ممنوع! يا سوا يا ولا واحد». عرفت أنهم يضمرون له السوء ولم أستطع أن أتركه يُساق وحيداً، وتحت وطأة إلحاحي، ودرءاً لتحركي الإعلامي، وافقوا على مرافقتي إياهم، وقبل أن ننطلق بقليل، دخلوا إلى المقرّ أخيراً وكتبوا «مُصادَر لجبهة النصرة ممنوع الاقتراب».

إلى سجن «العُقاب» سيّئ الصيتِ أخذوا رائداً، وأما أنا فأخذوني إلى منزل أحدهم يكاد يقتلني خوفي على رائد، وحزني على آلة التصوير الخاصة بطراد ﷺ. أحسست بيدي مكبلتين لا أستطيع انتشال رائد مما هو فيه، ولا استرجاع شيء مما أُخِذ، ولا حتى ضمان مصيري. أسررت لنفسي أنّهم سيقتلونه لا محالة، وسيكون نكبتي الأخرى بعد طراد.

لم يكن خالد معنا. تركهم حتى أنهوا عملية السطو ثم تحجج بنسيانه مفتاحَه في المقر وطلب إذناً لجلبه. دخل ليجد أن حتى الثلاجة لم تسلم من كيدهم، فقد فتحوا وعبثوا بما فيها وأكلوا ما استطاعوا، ولو أنهم قدروا على أخذها بذاتها لما قصّروا... كانت غرفتي مقلوبة رأساً على عقب، والثياب مرمية هنا وهناك. أخذ صوراً خلسةً للمكان ثم استعجل الخروج ليكتب الخبر مرفقاً بفيديو وصور ليلفت الأنظار إلينا ويستجلب التضامن الشعبي. بالنسبة إلى

العالم على وسائل التواصل الاجتماعي، فيسبوك وتويتر والأوسمة المتضامنة، بالإضافة إلى الصحف العالمية، كان رائد وهادي معتقلين. بوشِر الإعداد لمظاهرات داخلية وخارجية، وكانت فرحتي لا توصف. اضطرت جبهة النصرة إلى إرسال مندوب ليحل المشكلة في أسرع وقت ممكن رضوخاً للضغط الشعبي خوفاً من ازدياد ضراوة الهجوم عليهم، وجلسنا نتحاور؛ أُملي عليه شروطي ثمّ يفعل الأمر ذاته. كان معه اثنان تونسيان، أتعباني في النقاش. صرتُ أحاورهم الواحد تلو الآخر حتى وصلنا أخيراً إلى اتفاق يقضي بإعادة المعدات المسروقة ـ وهي المرة الأولى التي تعيد فيها جبهة النصرة ما تأخذ ـ والإفراج عن رائد وعني. أما المقابل فكان أن ننشر مقالاً يروي الحادثة ذاكرين فيها أن رائداً أخطأ بحقهم. لم يكن هناك خطأ، ولم نكن مقتنعين بما أجبرنا عليه، ولكن صيغة الاتفاق النهائية كانت أكبر مكسب ممكن أن نستحصل عليه.

لم تسعني الفرحة بقرار الإفراج عنه أخيراً، ولو مقابل تنازل معنوي. لن أخسر طراداً آخر مجدداً، قلت لنفسي. سمحوا لي بالذهاب لمقابلته واصطحابه في طريقه إلى الحرية، فركبت سيارتي وتَبِعتُهم حتى أحد الحواجز التابعة لهم على أطراف كفرنبل. هنالك أوقفوني كي لا أطّلع على مكان السجن، وأمروني بالانتظار ريثما يصل رائد.

على الطرف الآخر كانت بوابة السجن تفتح، وصوتُ السجان الملثم يصيح باسم رائد الفارس. وحين استعلم إلى أين يقودونه، جاءه الردّ صارماً: «مشّي معنا بدون ولا حرف» لكنّ الأمر لم يكن قابلاً للتطبيق إذ أتبعه السجان بسؤال: «أنت الإعلامي؟»، فأجابه رائد بالإيجاب،

ـ ايه نعم، أنا الإعلامي

ـ بشو بتشتغل؟

ـ بالإعلام طبعاً! بشو بدي اشتغل؟!

ـ ايه مشّي[1] مشّي وبلا فلسفة.

اقتادوه من يديه وألبسوا رأسه شيئاً أسود يشبه الكيس القماشي، ثمّ أقلّوه في سيارة من نوع فان تابعة لهم. لم يكن لدى رائد شكٌّ بأنّهم يقتادونه إلى الموت. «مشّي وبلا فلسفة» وإعلاميٌّ وتكتُّمٌ على الوجهة أسهم لا تشير إلا إلى شيء واحد: الموت. بدا له الطريق طويلاً، فيما السيارة تجوب الشوارع المعبّدة تارةً والترابية أطواراً. آلاف الأفكار جابت في رأسه حول الطريقة التي سيموت فيها، ولربما فكّر كيف سيكون الخبر على من يحبّ... لكنّ الخبر الأجمل كان له حين نُزع الكيس من رأسه وأُمر بالنزول من السيارة. كان أول ما رأى بعد أن فرك عينيه هو هادي مبتسماً، لكنّ الوقت لم يتسع ليمعن النظر إذ ركضت إليه وعانقته حامداً الله على سلامته. كان آخر ما توقعته أن أراه سالماً معافىً مرة أخرى.

استقلينا السيارة معاً وصَحِبته إلى منزل أهله أحدّثه طوال الطريق عن المفاوضات والحل الذي توصلنا إليه ولوعتي في غيابه. كان الجميع بانتظاره في المنزل، ولما دخلنا لم تتمالك والدته المسنّة نفسها من البكاء، ثمّ عانقتني من بعد عناقه الطويل وأكّدت لي أنني ابنها أيضاً، مثل رائد.

أما بالنسبة إلى الاتفاق فقد كتبت المنشور، ثم اختلفنا على صيغته. أنا أورد أنّهم داسوا على علم الثورة، وهم يرفضون أن أذكر ذلك. ثم حاولوا أن يحذفوا أكثر من جملة، لكنني لم أرضَ. قلت لهم أنني سأذكر أن رائداً أخطأ لكنني لن أحرّف أبداً ما حصل. أُفرج عنا وعن المعدات، ونُشر الخبر في يوم واحدٍ طالت إشراقة شمسه.

---

(١) امشِ.

# هادي شهيداً

## ٧ تشرين الأول/ أكتوبر ٢٠١٥

وكأنّ جبهةً ظالمةً لا تكفي، انضمّت القوات الروسية الجوّيّة إلى أرض المعركة بقوّةٍ، مساهمة في تحويل مسار الثورة من مواجهةِ نظامٍ ديكتاتوريّ إلى مواجهة أنظمة عالمية مصاصةِ دماء! ومع بداية التدخّل الروسي، خرجتُ وخالداً وحموداً لتغطية إحدى المعارك؛ إذ كان الهجوم على حماه في أوْجه، ومجزرة الدبابات قد حصلت.

كنتُ أصوّر اشتباك الجيش الحر معهم، وإبان ذلك، نشرت صفحة مزورة باسمي، هادي العبد الله، خبر استشهادي على لسان أحد الأصدقاء المختلقين. لم يكذب الناس خبراً، فتداولوه من دون معرفة باستفادة النظام من نشر خبر كهذا. حاول الكثيرون التواصل معي ومع خالد وحمود، لكننا كنا في المعركة فاقدي الاتصال من الصباح الباكر حتى الغروب. أحد أصدقائي أكّد لهما استشهادي في نهاية المطاف.

لمّا عدنا مساءً من تصوير مشاهد الدبابات المتفحمة وردود الثوار على القوات الروسية، كنت أقود السيارة فأوقفتنا عائلة، وسألنا ربُّها إن كنا في الخطوط المتقدمة من الجبهة. رددت عليه

بالإيجاب، فسألني إن كان هادي العبد الله قد استشهد حقاً، لم يكن مني إلا أن تفاجأت وضحكت ثم أوضحت له أنني هادي... أنزلني من السيارة على عجل وصار يقبّلني ويحمد الله على سلامتي ثم سلّم عليّ كلّ من كان معه بحرارة. وقتئذ عرفنا من الرجل أن إشاعة عن استشهادي قد اختُلِقت، وأن وسائل التواصل الاجتماعي والمراصد الإخبارية كلّها قد عممت الخبر.

وبينما نحن عائدون، استوقفنا حاجز للثوار، فلمّا رآني المرابط سمّى بالله واستعاذ من الشيطان إذ كان يظنني قد مِتُّ. قدّرتُ حينها أن الخبر قد استشرى فعلاً، ثمّ وصلنا إلى المقرّ فلم أجد رائداً؛ إذ كان قد خرج يتحرّى خبراً عنّا. لمّا شارف اليأس في بحثه، عاد أدراجه إلى المقرّ فوجدنا بانتظاره، لم يتمالك نفسه، فاندفع نحونا يضربنا ضربَ المُحِبّ الخائف المعاتب، كان يضمّ أحدنا بيدٍ ويضربه بالأخرى من حيرته أيفرح لقدومنا أم يعاقبنا على الاختفاء!

ضحك خالد منه، وعلّق قائلاً: «والله لو كنا ميتين أسهل من بهادلك»... فأجابه: «بتستاهلوا بتستاهلوا والله بدكن ضرب ما كنت بعرف هالقد إنتو غالين وما كنت بعرف إنو الحياة ما بتنعاش بدونكن».

بعد ذلك كانت لي جلسة مع هاتفي المحمول؛ مئات الرسائل والاتصالات الفائتة من أهلي والمُحبّين. اتصلتُ أولاً بأهلي الذين كادت دموعهم أن تبلل وجنتيْ، موضحاً لهم ما جرى، واعداً إياهم أنني لن أشغل بالهم عليّ مرة أخرى، على مبدأ «قل لي ولو كذباً كلاماً ناعماً»...

# #حلب_تحترق

موجودين للتغطية الإعلامية على الدوام كنا أنا وخالد. كان القصف يشي بأنّ ضمائر كثيرة قد اتّحدت ضدّ الشعب المكلوم. وفيما نحاول أن نوثّق ونغطّي كل ما يحصل في إدلب وريفها، كانت حملةٌ روسية إيرانية تساند النظام لإبادة المدنيين في حلب، مما اضطرنا إلى ترك بيتنا في كفرنبل والانتقال إلى شقة هناك، قريبة من منظومة إسعاف كان يطلق عليها اسم «إنقاذ» في حيّ *الشعار*، ليس بعيداً من مشفى البيان. كانت تلكَ هي المكان الأمثل لتسهيل انطلاقنا مع سيارات الإسعاف إلى الأماكن المستهدفة فور وقوع الحوادث، على الرغم من الخطر الذي يحيط بها حيث تعتبر مخترقة أمنياً. ارتُكِبت المجازر يومياً من دون انقطاع، وكنا نركض معها لاهثين نلتقط الصّور ونحصي المواجع. كانت الصور ثنائية الألوان؛ رمادية مشوبة بالأحمر، وصار الموت مؤنساً لكل من يزوره حيث لا بصيص أملٍ في الأفق. لكنّ صحافة المواطن فعلت فِعلها حيث ساهمنا في إطلاق حملة «حلب تحترق» على وسائل التواصل الاجتماعي آملين أن يتوقّف القصف بضغط من الرّأي العام. وبالفعل حصّلت الحملة ثلاثة أسابيع هدنة سمحت لنا بالعودة إلى كفرنبل، ثمّ

بعد انتهائها عدنا إلى سيرتنا الأولى، نركض بين أحياء حلب نقنص بآلات التصوير ما تبقّى من رفاة ودمار.

* * *

حلّ ضيفاً علينا شهر رمضان المبارك.

كعادتنا، أصررنا أنا وخالد على أن نصوم على الرغم من الحرّ والحرب اللذين كانا كافيين كعُذرٍ شرعي لنا لنفطر. استيقظنا مع الطائرات صباحاً، في السابعة أو بعدها بقليل؛ حيث كانت تُعلِن بقدومها بداية المجازر، وبداية العمل. قمنا كما في كلّ مرة لننقل الصورة الحيّة إلى العالم الذي كان لا يزال نائماً حتى يفوّت بعض ساعات الصيام... نركضُ مع كلّ برميل تُسقِطه لنحفظ ماء وجهنا بتصوير الوجوه المُدماة وهي تنتحب علَّ صوتاً منها يصل إلى مسامع الضمائر الحيّة. وحين كانت همّتي تفتُر عن نقل الصور التي لم تكن تُحرّك ساكناً، كان خالد يشدّ من عضدي ويذكّرني بأنّ درب الحرية طويل مُكلِف. وهكذا، كنتُ أعود لسانَه، ويعودُ بصري.

كنّا نعرف بوقوع المجازر من خلال قبضة لاسلكي... ويومها سمعنا بوقوع واحدة في منطقة جسر الحاج في حلب. حملنا متاعنا وركبنا السيارة وانطلقنا بأقصى سرعة ممكنة. حين وصلنا، شرعنا بتصوير المكان. الصورة المعتادة مع اختلاف بالتفاصيل: ركام، ودماء، وأشلاء. وقبل أن ينجلي الدخان، سمعنا الشباب يحذروننا من غارة جويّة محتملة على المكان ذاته؛ إذ إن الطائرات لم تُغادر بعد. وما إن ابتعدنا قليلاً حتى نزلت البراميل والصواريخ مرّة أخرى على المكان ذاته لتزيد دماره كما لو أنّ مرّة لم تكفِ. أقول «نزلت البراميل» كما لو أنّني أصِف مشهداً من برامج الأطفال العنيفة: دخان

أسود وضبابية في المشهد قبل أن يشقّ الصراخ سكون ما بعد الانفجار، هذا إن كان أحدٌ قد كُتِبت له النجاة...

أسمع نفسي أقول مجدداً بتلقائية:

«يستمر الطيران الحربي بقصفه لمنازل المدنيين وللأسواق التجارية. قبل قليل قام الطيران الحربي بإلقاء أربعة صواريخ على هذه الأسواق مما أدى إلى دمار كبير واندلاع حرائق كما ترون، يقوم الدفاع المدني بما يستطيع حتى يخمد النيران وينتشل جثامين الشهداء والمصابين، نرى هنا عشرات الشهداء والجرحى، في الوقت الذي ينتظر فيه السوريون المساعدات الغذائية، تقوم الطائرات بقصف الأسواق التجارية، السيارات تُقصَف، المحال التجارية تخرج من الخدمة، الناس يُستهدفون خلال شرائهم حاجياتهم الأساسية... أصبح الطيران مشهداً عادياً يومياً».

وأقول «قتلى» كما لو أنني أعدّ حاجياتٍ اشتريتها من بائع ما، وأقول «مصابين» كما لو أنّهم دُمى. يصبح المشهد عادياً جداً، وتصبح الألوان الباهتة مألوفة. أعيدُ نفسي وأنا أنادي مرة أخرى محاولاً إيصال صوتي ولو من غير أملٍ له بالحياة:

«مشهد آخر حيث استُهدف حيٌّ كاملٌ بصاروخ لم يبقِ حروفاً تصف كمّ الدّمار والخذلان الذي وصل إليه الشعب... ألا تستحقّ أشلاء الشّهداء لغة جديدة تتّسع للمصيبة؟ حتى الأموات في هذه المقبرة استُهدِفت قبورهم... لا أحياء ولا أموات ولا حيوانات يسْلَمون من القصف».

كنّا قد عدنا إلى التصوير مرّة أخرى حين هَوَت علينا ستة براميل، وكان خالد لا يزال في السيارة يُعِدّ آلة التصوير، وبيدي أخرى بدأت التصوير بها. لا تتركُ الحربُ مجالاً لأحدٍ أن يتساءل

لِمَ ينجو هوَ فيما يُصابُ غيره لأنّها ترسم على كل جسدٍ جرحاً، وتترك في كلّ روح ندبة. أبعَدُ برميل متفجّر هوى على بعد عشرة أمتار من تكبيراتنا... فجأة تحوّلت الصورة من دخان إلى ركام تُعكِّرُ صفوَهُ «الله أكبر». ترنّحت آلة التصوير في يدي... كانت أوَّلَ الأمرِ تُوثّق الحدث: تحفظُ للتاريخ صوَر عواميد الكهرباء التي تغرق في الدخان الذي لا يُمزّق أشلاءه إلا تكبيراتُ النّاس المُسارعين إلى نجدة المنكوبين .الله أكبر، جدار مُرْتميةٌ بقاياه على الأرض .الله أكبر، بنايةٌ تحاول التّماسك كي لا تقع فتَزيدَ المصيبة .الله أكبر، شجرةٌ تختنق .الله أكبر، سماءٌ تُنازِعُ، وحنجُرةٌ تَغُصُّ، وروحٌ ترتقي.

الله أكبر، الله أكبر.

# العهد المكلف

تحوّلت الصورةُ فجأة من السماء إلى الأرض. حصىً، وحجارةٌ، وركام. ألوانٌ مُغبّرةٌ تتوزّع بين الحطام فيما أَصرخ لخالد: «تصاوبت براسي يا خالد»... كنت أستذكر بينما تتلبّد الصّورةُ اللحظاتِ الأخيرة في حياة كلّ صحافيٍّ أرّخَتها عدسة آلة تصويره ولم تَخُنْه. وأنا أفتح عينيّ كان جلّ همّي أن تكون الآلة تقوم بعملها... ثمّ سمعت أحداً ينادي باسمي... اهتزّت الصورة بينما اختلط اسما هادي وخالد بالدّخان... جاء خالد واستلم عنّي آلة التصوير كما اتّفقنا من قبل؛ أن يتولّى أحدُنا الأمرَ إن أصيب الآخر. أحسستُ برأسي ثقيلاً من جهة اليسار، رفعتُ يدي إليه تلقائياً أسنُدُه فَانسابَت خيوط الدّم الدافئة من بين أصابعي، امتدّت أذرعٌ من اليمين واليسار ترفعني لأقف وأتّجه نحو سيارة الإسعاف، وبدأت الصورة تركض معنا بمحاذاة الرصيف كما لو أنّها تستبق سقوط براميلٍ من جديد. كانت الصورة تقول أكثر بكثير من أيِّ كلام. أقدامٌ تهرول، بابٌ يُفتَح، تهتز من جديد، أحرف لاتينيةٌ تعني «صحافة» على درْعٍ لم يَحُل دون الإصابات، يدٌ على النّزيف، عدسةُ هاتف السائق تُصوّر بينما اليد الأخرى تمسك بمقود سيارة الإسعاف، باللاتينية أيضاً تبدو لهنيهةٍ جملة باللون الأحمر سَتُضحِك المشاهدين لاحقاً: «أحزمة

الأمان يجب أن تُثبّت»، وجه خالد الملائكي وشعره الأشقر مُلطّخان بالدّم، ملامح وجهه التي تكاد تذوب من فرطِ الألم، يُصاحب ذلك كلّهُ صوتُ سيارة الإسعاف التي لم نتوقّع أن نكون من يحتاج إليها.

ثم موعد مع مشهد جديد. وأنا أردد: «خالد، أنت منيح؟ أنت منيح؟»، بدت أرضية المشفى ملطخة كما في أيّ نكبةٍ بدماءٍ لم يَعُد يُعرَف صاحبها. ترتفع الصورة قليلاً، فوق جهاز التدفئة المُثبّت بالحائط رفوف عليها أكياسٌ وعُلبُ مواد طبية، أخلع درع الصحافة الواقي، ألقي نظرة إلى خالد لأطمئن عليه، تتحسس يدي رأسي، لكنها تشعر بالدماء التي تسيل من جبينه، أفتح صنبور المياه وأضرب وجهي بكفيّ لأزيل الدماء عن وجهي لعلّ بذلك يزول الألم، ترتفع يدُ الطبيب وتنخفض مُمسِكَةً بالإبرة يَخيطُ بها جرحَ رأسي فيما خالد مستلقٍ على السرير وإصبعاه في الهواء يُزيّنان ابتسامته بإشارة النّصر.

لطفُ الله وحده الذي نجّانا، فالبراميل كانت تكفي لمحو بناء كامل من الوجود. كان خالد لا يزال في السيارة حيث طالته شظية بعد أن هشّمت هيكل السيارة. أما أنا فقد احتميت بساتر ترابي وجدته قبالتي ما جعلني هدفاً لشظية كرفيق دربي بمقدار خمس قطب. نزفنا كثيراً، الأمر الذي أجبرنا على أن نقطع صيامنا ونعود إلى المنزل حتى نرتاح.

قلتُ له الجملة التي أرددها على مسمعه كل يوم: «حبّاب خالد، انتبه إلى نفسك. اليوم كنا قريبين كتير من الموت... ما قادر إتحمّل أخسرك. يا منموت سوا يا منعيش سوا». كان يعلم كم أحبّه، وكم أخشى فقدانه، وكان يحبّني بالقدْر ذاته أو أكثر فلا يرفض لي طلباً. كان ممنوعاً عليه أن يدخل إلى أي مكان خطر إن لم أدخل قبله، وممنوعاً من أن يذهب إلى أيّ مكان من دون أن

تسبق رِجلي رجلَه. كنتُ أحاولُ أن أتجنّبَ مشهد الوداع فأقرّبُ المسافة بيننا كي لا يصيبَ الموتُ أحدَنا ويخطئَ الآخر. قلتُ له: «إذا صارلك شي بقتل حالي. بنتحر»، ضحك مستغرباً لِمَ أشدّد عليه هذه المرة. كنتُ أحاول أن أرهِبَه لأثنيَه عن الموتِ كما لو أنّه هو من يقرّر ساعة مَنيّته. أعدتُ عليه: «رح انتحر إذا صارلك شي... رح أكبّ حالي عن سطح مشفى البيان...». كنتُ أعلم أن انزعاجي نقطة ضعفه، فما بالك بقراري بالانتحار عن أعلى سطح لمشفى في حلب... لم أُرِد لشخص يستطيع نَحْتَ ابتسامة فوق حطامٍ سبَبُه صاروخٌ بأن يذوي ويذوب في دخانه.

انقلَب مزاحه إلى جدّ. لمعان عينيه فجأة بدأ يُخيفني، ثم قال لي بِوُجوم: «ليش عم تقول هالحكي هلأ؟ ما بسامحك أبداً...»، سكت للحظة ثمّ تابع: «إذا متت أنا بتكمّل أنت، وإذا متت أنت بكمِل أنا، خلينا نتعاهد!»، هززت رأسي وقلتُ لا، «ما رح تورّطني... ما بدي أتعاهد... تخيّل إني أخسرك وكمّل». قد لا يكون مستحيلاً لشخص أن يرى إن فقد عينه، لكن بالله عليكَ كيف أُبصِر إن انطفأت عيناي! لكن لمّا رأيته أَذعَن لرفضي لِنتُ له... قلتُ: «منتعاهد». لم أعرف أن هذا العهد سيكون مُكلِفاً جداً، وأن تلك السهرة ستكون الأخيرة لنا معاً. حديث تلك الليلة ولّدَ جرساً يدقّ في أذني كما لو أنّ ذكرى طراد ليست كافية لتأريقي.

في اليوم الثاني، خرجنا بضماداتنا إلى العمل ثمّ قصدنا المشفى في نهاية النهار لننظف جراحنا ويكشِف الأطبّاء عليها. بِحُكمِ الحصار، كنّا قد أصبحنا أصدقاء الأطبّاء، فأمضينا أوّل الليل عندهم نتسامر، وقبل منتصف الليل بساعة تقريباً التقطنا آخر صورة لنا ثم غادرنا إلى المنزل.

لا يغيب عنّي المشهد بتفاصيله: أبنيةُ حلب القديمة المتراصّة، بمداخل ضيّقة تتوزّع على الأزقّة. أقودُ السيارة حينذاك متوجّهاً إلى المنزل، ثمّ أركُنُها بالقرب من باب البناء الذي تقع شقتنا في طابقه الثالث في حيّ *الشّعّار*. تركتُ خالداً يُكلّم أحداً من الجيران وسبقته صاعداً إلى الشّقة. أنا الذي كنتُ أنبّهه من ألا يتقدّمني إلى أيّ مكان، تقدّمتُ أمامه إلى البناء الذي يُفتَرضُ أنّه آمن.

* * *

# تحت الأنقاض

## ١٧ حزيران/ يونيو ٢٠١٦

آخر شيء أذكُرُه أنه كان خلفي بخمسة أو ستة أمتار. شعرتُ فجأة بالماء يتدفّق من حولي قبل أن تسري الكهرباء في جسدي مجرى الدم. لمَ أدرِ أولاً مصدرها... لوهلةٍ ظننت أن أحد أسلاك الكهرباء تدلّى من ساعات الكهرباء المعلّقة عند المدخل، أو أن عدادات المياه بجوارها لها علاقة بالأمر... لكن لحظة... ما الذي تفعله أكوام الحجارة والحديد فوقي؟ سألتُ نفسي وأنا أكاد لا أتنفس. تنبّهتُ، وصعقات الكهرباء ما تزال تضرب جسدي، إلى أن شيئاً آخر قد حصل؛ كنتُ كُلّي تحت الركام لا حولَ لي ولا قوّة. أدركُ فقط أن مصدر التيار الكهربائي يجب أن يُقطع حتى أستكين. قلتُ أنادي خالداً ليوقفه... لا يمكن أن يكون تحت الركام أيضاً؛ إذ إنّه منذ هنيهة كانت تفصله عني بضعة أمتار... قلت بصوتٍ يكاد لا يخرج من حنجرتي: «خالد يا خالد سامعني؟! أنا هون خليهن يفصلوا الكهربا».

دقائق وأصبحت الصورة أوضح. فهمت أن انفجاراً ما قد أدى إلى انهيار المبنى فوقي، وهَوَت معه أسلاك الكهرباء لتستمسك بعُرى جسدي وتستنزفه... ثم انفجرت أنابيب المياه لتزيد الوضع سوءاً.

لأكثر من عشر دقائق كان الألم شديداً بشكلٍ لا يُحتمل، وكنتُ مستسلماً له حيث لا طريق للخلاص. يداي مُحكمتا التثبيت تحت الجدران المنهارة عليّ، وقدماي لا تستطيعان التّزحزح من مكانهما... وفوق صدري يجثم سقفٌ، لمّا طال انتظاري، ظننته الموت. صرخت بصوت أشبه بالصدى أرجو أحداً أن يقطع عني الكهرباء حتى لم تبقَ لي حُجّة للبقاء على قيد الحياة.

حتّى التفكير يصعُب في موقف كهذا. أن يكون متنفّسك الوحيد فتحةٌ تُركت قَدَراً أمام فمك لِتَنهَل من الهواء ثم تنادي منها صديق عمرك... «يا خالد، قل لهم أن يفصلوا الكهرباء...»، ثم تتنازلَ عن شطر الجملة الثاني لعلّك تصل إلى إجابة ولو بهمس... «يا خالد»...

لمّا يئستُ من أن يصل أنيني إلى مسمعه، ناديتُ من قد يسمع: «يا جماعة اللي سامعني يفصل الكهربا حبّابين»... في لحظات كهذه، لا أصدَقَ من قلبٍ يخفِقُ على إيقاع «يا مرحباً بالموت». مرّت أمامي كل الصور التي كنت فيها قريباً جداً من النهاية... يوم أخطأتني قذيفة مدفعية... وأيامَ قُصِفَت أماكن بعد لحظات من تركنا لها... والبراميل التي تركتْ آثارها فينا منذ يومين... تيقّنتُ أنني، تحتَ الأنقاض، أقربُ إليها من أيّ وقتٍ مضى... لا أُنكِرُ أنني فرحت عندها... مع كلّ الألم الذي اجتاحني، أحسَسْت بالمسؤولية تُلقى عن كاهلي... لن تكون هناك قضيةٌ بعد اليوم أرفعها. سترفعني هي بنيلي الشهادة، وغيري غداً يحملها ويتابع المسير. ثمّ تذكّرتُ الشهادة.. فكّرت بأنّ الله تعالى قد لا يتقبّلني شهيداً فاستغفرته عن كلّ ذنب قد أكون أذنبته... نطقتُ بالشهادتين كَمَن يحتضر... تذكرت أهلي... أمي وأبي... إخوتي... رائداً... هؤلاء، الأشخاص الذين أحبهم... ثم عاد طيفُ خالد ليمسح كلّ شيء من

ذهني ويحتلّ تفكيري... كيف سيعيش من دوني... هل سيبقى على العهد... هل سيغفر الله لي... وبينما أنا مستغرقٌ في الوجع مُقبِلٌ على الموت تناهى إليّ من بين الرّكام صوتُ خالد.

أو لنقُلْ صوتٌ يُشبه صوت خالد... أو ربّما سمعتُ ما كنتُ أريد سماعه، ولو لم يكن هو.

لمّا سمعتُ صوته اسْتكَنْت. على الرغم من استسلامي المُطلق للموت، قلتُ جاء الفرج، خَفّت قوّة التيار الكهربائي لكنّه لم يتوقف. سألني خالد ـ أو صوتٌ شبيه بصوته ـ عن مكاني، وأخبرني أنّهم قطعوا الكهرباء، لكنّ سلكاً ما كان متصلاً بعد، فطلبتُ منه فصلَه أيضاً. وعندما تمّ الأمر، استرخيت... هوى الوَهن الذي كان يرتجّ في جسدي إلى أسفل... أحسست بالوجع كلّه يتلاشى رويداً رويداً كملحِ البحر يذوب في كوب ماء، كان ينقصني فقط أن يُغمى عليّ بينما يتمّ انتشال ما تبقّى من جسدي لأُواصل الحياة. صرتُ أدعو الله أن أغفو أو يُغمى عليّ كي أرتاح... لا يمكنك أن تسألني عن الوقت في حال كهذه... أنا نفسي لا أعلمُ كم بقيتُ، ولا كم فكّرتُ ولا كم تأوّهتُ ولا كم انتظرتُ الموت والفرج في الآن ذاته. عندما تكون في الواقع مُكَبّلاً تقف عقارب الساعة، وتترنّح أنت بين ما كان وما سيكون. تُصبح أسيرَ الانتظار؛ هل ستبقى هكذا؟ وإلا، فما الذي سيحلُّ بك؟

استفَقتُ فجأة. عدتُ إلى الوعي بعد أن غبتُ من دون أن ألحظ كيف ومتى. عدتُ على صوتٍ ما يحفر فوقي... صوتُ ذاك الشيء مألوفٌ جداً؛ حفّارةُ الدّفاع المدنيّ. ظلّت تحفِرُ وتحفِرُ من دون توقّف وأزيزها يملأ أذنيّ، تشوبُه أصوات أناسٍ كُثُر لا أميّز أيّاً منها. انقلبت الأدوار فجأة: الحفّارة التي لطالما صوّرتها وهي تعملُ

بُغية إنقاذ الضحايا أصبحت تُوغِل في الرّكام من أجلي، والأصوات التي حاولتُ إيصالها على الدّوام اختنقت معي تحتُ في الظلام حتى احتجتُ وإياها معاً إلى من يرفع صوتنا. كان دورُ الحَرب بسيطاً سريعاً في تحويل المُصوِّر إلى صورة، وفي إخمادِ الصوتِ بصوتِ انفجارٍ، من شدة قوّته لم أسمعه.

تَحوّل أملي بالخروج مع وصول الحفّارة إلى هاجسٍ آخر في غضون لحظات. أتُراها تحفِرُ كثيراً فتصلَ إليّ وتتجاوزني؟ هل ستُخطئ في تقدير المسافة فتنخرَ في لحمي؟ لكن فيَّ من الألم ما يكفي ويزيد... لا طاقة لي على احتمال وخزةِ إبرة فوقَ ما يتملّكني من أوجاع... لمْ يَسلَم أيّ جزءٍ من جسدي حتى يستطيع تلقّي ضربةٍ أخرى. ثمّ عدتُ أُطَمْئن نفسي أنني قد شهدت كثيراً من هذه الحالات ولم يحصُل يوماً أن أخطأ المُنتشلون بإيذاء الضحايا. لكن ما الذي يمنع أن تكون هذه هي المرّة الأولى؟!

رويداً رويداً بدأتُ أخرج من تحت الركام؛ أولاً أُزيحت الأحجار عن ساقَي، ثم عن فخذَي، بعدها أحسستُ ببطني ومِن ثَمَّ صدري طليقين. كان رأسي لا يزالُ عالقاً بين أشياء لم أميّزها... حديد، أو إسمنت... ومع قليلٍ من تأوّهاتي، ومُداراتهم خرَج أخيراً. كنتُ مُدمى بكل ما للكلمة من معنى، لا تعرِف لي عينين من شدة ازرقاقهما، ولا ملامحَ من كثرة الجِراح. خرجتُ من تحت الركام بجسدٍ يَعِجُّ بالكسور، ورأس يزدحم بالأفكار، ولسانٍ لا يسأل إلا عن خالد.

الصورة من الجانب الأخرى كانت صاخبةً جداً، ومظلمة جداً إلا من بعض الضوء ينبعث من الخوذات البيضاء. يومَ رأيتُ المقطع المصوَّر مُعَنوناً بـ: *«لحظة استخراج هادي العبد الله من تحت*

*الأنقاض ـ نسأل الله له الشفاء العاجل»*، كنتُ كمن يتابع مقطعاً صوَّرهُ بنفسه. كأنّ ذاك الجسد المدفون ليس جسد هادي، وكأنّ تلك الرؤوس المُتحلّقَة حول الضحية تُكلِّم أحداً آخر. كأنّ كلَّ تلك الأصوات والضجّة تسعى لإنقاذ رقم آخر كي لا يضاف إلى لائحة الشهداء... وكأنّ العالمَ كُلَّه لا يلتفتُ إليهم، مرّةً أخرى...

يتحلّق كثيرون حوله في محاولة لانتشاله، أو تفقّد حالته، أو توثيق اللحظة. يُوضعُ الشابّ على الحمّالة مع دمائه وأساه، ويُهرول به الموجودون إلى سيارة الإسعاف. كلُّ كلمة أو جملة تُقال مرتين أو ثلاثة بسرعة كي يتم التشديد عليها: صَوِّر صَوِّر، ابتعد ابتعد، أبعِد يدك أبعِد يدك، أغلِق الباب أغلِق الباب. في غضون ثوانٍ يَصيرُ داخلها، يُغلَقُ بابها بسرعة، ثم يبتلعها آخرُ الطريق فتغيب عن الأنظار.

# عيني الأخرى

المشهدُ مألوفٌ، على الرغم من الضبابية التي تحول بينه وبين عيناي. . . كنتُ أحاول فتحهما فيما يحاول جفناي الإطباق على الصورة نهائياً. نظرتُ إلى أعلى ثمّ إلى أسفل، لكنّ أيّاً من الاتّجاهات لم يحمل لي وجهَ خالد الذي أتحرّق لسماع خبرٍ يطمئنني عليه. وبدلاً من ملامحه التي تكفي لتسكين آلامي مهما استفحلت، كان وجهُ الطبيب الذي بدّل ضماداتِ الجراح أمس يُطِلُّ ليطمئنّ عَلَيّ بعد إغماءة التخدير لمدة يوم.

نظرتُ إليه بتوسّل أسأله عن خالد، أرجوه بقدْرِ ما نزفتُ أن يطمئنني على شقيق روحي، لكنّه قبل أن يُجيبَ سكَتَ كما لو أن ابتعاده كلّ هذه المدّة لم يكن نذير شؤم بما فيه الكفاية.

«عَجَب! وينو خالد؟ ماني شايفو! هو بخير؟»، قلتُ بصعوبةٍ. . . لكنّ النظرات كانت حائرةً كيف توصل الجواب. «خالد بخير»، قالَها كي أهدأ. وكي أهدأ، كان لِزاماً عليّ أن أراه، كنتُ أشعر أنّه ليس على ما يُرام. . أنَّ توأمَ روحي ونصفيَ الذي جَبَر كسريَ الأوّل يؤلمني. . جَسَداً من غيرِ حولٍ ولا قوّةٍ كنتُ مُلقى على السرير، أودّ لو أفتديه، المُبعَد عنّي، بأنفاسي المُجهَدة بعدَ إذ أكَلتْ منّي الجِراح ما قدّر الله. . .

في مشفى حيّ *الصّاخور* كانَ العطش ينخر حلقي، فطلبتُ ماءً حينَ لم يُلَبَّ الطّلبُ الأول على الرغم من مُحاولاتي المُستميتة... لكن هذا أيضاً لم يكن بالسّهل تحقيقه... قال الطبيب إنّ ثلاث عملياتٍ جراحية أجريت لي في البطن والساقين، وممنوع عليّ شربُ الماء إلى أجلٍ مُسمّى... لكنّه حاول التخفيف عنّي بترطيب قطعة شاشٍ مسح بها شفتاي ووجهي؛ حيث كان ذلك أضعَفَ الإيمان. تحلّقَ المُسعِفون والأطبّاء ممّن أعرف حولي، فكانت فرصةً مناسبة لأعيد طلبي رؤيةَ خالد. كنتُ شبه متأكّد أنّ به خطباً ما، فألححتُ بالطّلب والاستزادة من التفاصيل عن وضعه...

قلتُ: «خالد وينه؟»، فقيل هو بخير... لكن الحاضرين ما لبثوا ينظرون إلى بعضهم كما لو أنّ أحداً لم يفهم السؤال... أعدتُ عليهم السؤال، مشدّداً:

«يا جماعة من شان الله طمنوني عن خالد... ليش واقفين جنبي... أنا بخير... أنا منيح... شوفو خالد حبابين».

كنتُ أتوقّع إجاباتٍ كثيرة... خالد يساعد المسعفين... خالد ينقل إلى العالم خبر إصابتك... خالد مصاب... أو ربما... خالد... رحل... ذهب من دون أن يودّعك... أخَلَّ بالاتفاق الذي بينكما... واستشهد... سبقك إلى حيثُ الأحبّةُ صاروا كَثرَةً حتى لَيشتهي الواحدُ الموت... لكنّني لم أكن أرغب بسماع أيّ من ذلك... كنتُ أريد صوتَ خالد، وحين أقولُ صوت خالدٍ يعني صوتَه وحده... من دون أثرٍ لشظايا، ولا لِجِراح... يقولُ لي إنّه بخير، فأصدّقه، ثمّ أخلُد إلى نوم عميق ريثما يُشفى جسدي البالي أو أُسلِّمَ الروح... كنتُ أريد أن أرَاه يدخُل من الباب لاهثاً من خشيته عليّ، لا من إصابته... كانت ستكفي ضحكته التي لطالما زَيَّنَت

أصعب اللحظات... لكنّ شيئاً من هذا كُلِّه لم يتَعَدَّ حدود مخيّلتي...

ـ «خالد مصاب بشظية في رأسه...»،

ـ «شيلوه لعندي أو شيلوني لعنده...»، قلتُ بلوعة أمٍّ المُصاب.

ـ «لا ما فينا، وضعكن انتو الاثنين ما بيسمح...».

لم يستغرق الأمر كثيراً حتى فهمت مدى سوء الوضع... ولكنّه لم يكن بالأمر اليسير أن أتقبّله. مُهجَةُ القلبِ به من الآلام ما بِي... أو ربّما أكثر... وكأنّ التاريخ يعيد نفسه... الجُرح الذي أخذ منّي صديق اللحظات الحلوة والمُرّة أولَ مَرّة يستهدف المكان ذاته في الصّديق الذي استمات لانتشالي من دوامة اليأس التي أوقعني فيها جحيم الفَقْد... العنوان شظية في الرّأس، والنتيجة كابوسٌ أدفع ما بقي من عمري كي أستيقظ منه فأجده سَراباً... ليتك يا الله جعلت ذلك كلّه فيَّ وحدي فأقضيَ ويبقى خالد ليُكمِل المسير...

حاول المُسعِفون تهدئتي، فهم يعلمون من هو خالد بالنسبة إلى هادي... ويُحبّونه كَحُبّهم لهادي... لكن ما الذي يُبرّد القلب ويشفي الغليل ومُقلتي لا تراه إلا في الخيال؟ وكيف أستكينُ والدمعة واقفةٌ في محاجرهم لا يكاد يثني انهمارها شيءٌ، اللهم سوى صوتِ أمّي من سمّاعة الهاتفِ تستجدي خبراً عنّي كما أفعل مع خالد؟

في ذلك الوقت، توزّع المُصابُ واستشرت الآلام على الطريق من سريري إلى حيث قلوب أهلي في تركيا. دخل أحبّتي هناك في حالة هلع، في حين ضّجّت مواقع التواصل الاجتماعيِّ بخبر

الانفجار... الكُلُ يريد التماسَ خبرٍ عن هادي العبد الله... هل هو على قيد الحياة أم إنّ القنبلة الحاقدة قد أجهزت عليه ليلحق برَكبِ الشهداء في سبيل إبقاء شعلة الثورة مضاءة... لكنّ هادياً لم يكن يريد أن يكلّم أحداً... فالضّربة كانت موجعةً؛ منهِكة للقلب منبع الكلمات، وللعقل الذي سيُرتبها قبل أن تخرج... لذا توجّبَ على أهلي الاكتفاء بأخباري وبعض الصُّور من المُسعفين، التي لا أدري إن بَرّدت قلوبهم لبقائي على قيد الحياة أو ألهبتها لكثرة الإصابات التي توزّعت في أنحاء جسدي.

ترنّحتُ على سرير المشفى بين الحضور والغياب. كانَ يُغمى عليّ ثمّ أعود كالمُنتَشَلِ مرّةً أخرى من تحت الأنقاض، كما لو أنّ الأمر، في كل مرة، يحدث من جديد. قيل لي حين فتحت عيناي ذات مرّة أنّ رائداً يريد أن يحدّثني. ناولني أحدهم الهاتف الجوّال فقلت له على عجَل: «رائد أنا منيح... خالد وضعه أسوأ من وضعي... حاولوا تطلعوا بسرعة برا حلب»، ثمّ طلبتُ إبعاد الهاتف. كانت جليَّةً اللهفة على صوتِ رائد الذي كان بيني وبينه بعدٌ مماثل لذاك الذي بيني وبين أهلي... لكنني لم أستطع أن أقول أكثر مما قلت، ولم تبقَ في معجمه كلماتٌ، هو الآخر، بينما اثنان بمثابة أولاده يقبعان بعيداً عنه على أسرّة المشفى بإصابات بالغة الخطورة...

# طريق الآلام

«هل سمعتم عن حب ظمآن كاد أن يهلكه العطش للماء. . .

هل سمعتم عن عشق السقيم للشفاء أو عن حب الأعمى لرؤية السماء! حُبّي له كان أكثر والله من كل هذا أو ذاك!»

* * *

مذ وصلتُ إلى المشفى بحالتي الخطرة، استجلبتُ الخطر معي على من حولي، فما إن علمت قوّات النظام الأسدي بوجودي هناك حتى بدؤوا يُهدّدون المشفى بالقصف. كان الوضع سيئاً ولا يحتمل المزيد، فاستوجب إيجادَ خطة بديلة: أن نزحَف بجراحنا من الوطن النازف إلى تُركيا.

كنتُ أفتح عينيّ كأنّني أستيقظ من غيبوبتي حتى أملأ رئتاي بأمل النجاة لخالد ثمّ أعود إلى قعر اللاوجود. . . والمرّة التّالية التي فتحتهما فيها كانت حين وقف خالي وصديقٌ لي من القصير بالقرب مني. وما إن أفَقتُ حتى قال لي خالي إنّه سيُخرجني من حلب. كان جلّ همّي صديق الدرب فقلت على الفور: «أخرجوا خالداً». . . طمأنني خالي أنّ «مسافراً» خال خالد ـ الذي استشهد بعد مدة قصيرة ـ موجود أيضاً في المشفى وسيقوم بنقله هو أيضاً. أراحني

هذا الأمر نوعاً ما، لكنّ هاجس الفَقْد ظلَّ يحوم في الأجواء... لم تنجح دموغ رائد في انتشال خالد من غيبوبته، ولا حتى في تخفيف آلامي...

الطريق الوحيد إلى خارج حلب كان طريق *كاستلو*، ولكنّه لم يكن آمناً؛ إذ كان تحت عين القنّاصين وعُرضةً بشكل دائم للقصف والاستهداف... طلبتُ مسكنات قوية كالمورفين قبل أن ننطلق مغادرين المدينة. كانت الخطة تقضي أن أُنقَل بشاحنة صغيرة لتتماشى مع وعورة الطريق، لكنّ عدم قدرتي على طيّ ركبتيّ منعني من الركوب. ولمّا امتنعت عن ذلك، تمّ تأمين سيارة إسعاف خلال مدة قصيرة ودخلتها لتبدأ رحلة شاقّة على الطريق الترابي المحاذي *لكاستلو*، تهدف إلى نقل جسدي الممزق إلى بلدٍ قد ينجح في معالجتي وإعادتي رقعةً آدميّة فاعلة.

الطريق إلى تركيا يحتاج تقريباً إلى ثلاث ساعات من السّير على طرقات ترابية أقلّ ما يقال فيها أنّها وعِرة... ومع أنّني أمضيت تلك الساعات بين النوم والاستيقاظ، إلا أنّني كنتُ أحِسّ بِمُنحنيات الطريق كما لو أنّني أزحف عليها... لم تستطع جراحي أن تَنعم بالهدوء كوْني مُستلقياً؛ إذ انقلب بَدَني عن السرير مرّتين كدتُ فيهما ألفِظُ أنفاسي الأخيرة. لكنّ القدر المكتوب لا يزال يدفَع مَلَكَ الموتِ بعيداً عن الروح، ويقول لها دربُ المَجْدِ مُكلِفٌ موجِعٌ مَهيب لا يُعبَرُ من غير آلام وتضحيات.

ثم إنّ ما كان في الحُسبان قد حصل. الطريق غير ملائمة لسيارة الإسعاف ما أدّى إلى إحداث ثُقب في أحد إطاراتها، لكنّ السائق تابع المسير مُجبَراً لأن وضعي لم يكن يسمح بالمزيد من المماطلة.

طوال الطريق كنتُ أستحضر روح خالد الخفيفة في حضورها، الثقيلة عند الغياب. كنتُ أُمَنّي نفسي بأن يكون في غفوةٍ تُريحُه من آلامه، ثمّ أواسي نفسي بأنّ الألَمَ سِمَةٌ من سمات الحياة... إن كان يتألّم فهذا يعني أنّه حيٌّ، والقليل من الوقتِ مع لُطْفِ الله كفيلٌ بإعادة كَفِّهِ إلى كفّي... كان كمن يتلبّسني؛ صورته أمام ناظريّ، وروحه تعتصر قلبي، واسمه ينطلقُ من لِساني كيفما نطقت... كان الدّاءَ الفعليّ غيابُه، وحضورُه المُسكِّنُ مُتعذّرَ التوفّر.

بعد التّقلّب والارتجاج طوال الطريق، كان في استقبالنا الانتظار. ساعةٌ أخرى من الترنّح بين الغياب والحضور أمضيناها على الحدود السورية ـ التركية قبل أن أدخل مشفى *اسكندرون* لمدّة ثلاث ساعات تقريباً، حيثُ قام الأطبّاء بإنجاز ما يلزم حالتي من صور أشعة وتبديل ضمادات جراحي، ومن بعد ذلك نقْلي إلى المشفى الجامعي في أنطاكيا.

ماذا لِقلْبِ الأمّ أن يقول وعيناها تحتضنان جسدَ ابنها، حَبَةَ عينها، المُهشّم، قبل أن تصِلَ ذراعاها إليه؟ ماذا تقولُ الأختُ، فيما الدّماءُ تغدو رداء الجسد بدلاً من الجِلد، لمن تقاسمتْ معه الحُلوَ وما باليد حيلةٌ كي تتقاسم معه المُرّ؟ وماذا لِتنهيدة الصديق، رائد، أن تَكشِفَ من حنين أو هلع أو لهفة، فيما تعلَمُ أنَّ شطراً من الفؤاد يربض على سريرٍ آخر ينازع الموت؟ هذا كان المشهد بينما كنتُ أذهبُ وأجيء. هم يبكونني، وأنا، من غير دمعٍ أبكي خالداً. أهمس باسمه كلّما انفرجت شفتاي عن غير وعيٍ، ثمّ حين أعود إلى إطار الزمان والمكان أنطق حروف اسمه كاملةً وأُتبِعها بالسؤال عنه. لكنّ أصعب الأسئلة ما لا إجابة له... ما ينتهي بعلامة استفهام مفتوحة ينقطع من بعدها أي استئناف.

# شهيد بلا استئذان

كان لا بدّ من إعلامي بالأمر. خالد قد لحق بطراد دونما استئذان... وأنّى للشهيد استئذانُ أهل الأرض لرِفعَتِه!

اعتراني الذهول واليأس، وغدَت الدنيا شاحبة في نظري... *أحسست أنَّ أحزاني لم تعد أحزاناً! لم يعد يؤلمني الألم... لم يعد يعنيني الأمل!* في تلك اللحظة توقفت كل اللحظات... تاه الزمن وضاع، وضاع مع ضياعه الضياع! هناك قُتلت مرة ثانية... ليس القتل يا أصحاب أن يدفن الإنسان تحت التراب فكم من مقتول تمزقت روحه عشرات المرات وهو يفقد من هم أغلى عليه من روحه... كم من مقتول دفن وهو على قيد الحياة...

* * *

لم أكن وحيداً، ومع ذلك غزاني الشعور بالوحدة.

كنت كلّما أحنيت كتفيّ أمسكهما رائد وثبّتهما إلى أعلى، وكلّما أطرقت برأسي إلى أسفل أعاده أخي منذر شامخاً، وكلّما ذرفت عيني دمعةٌ حوّلها طارق قطرةَ ندى، وكلما قلتُ «لو»، كان لي أهلي خيرَ معينٍ لأحتسب! لكنّ فترة العلاج كانت صعبةً جداً، والإصابة كانت بشعةً بقدْرِ ما كانت موجعة، حتى إنّ رائداً يوم رأى ساقي

أثناء تبديل الضماد أُخرِج فاقداً الوعي من هول ما رأى... شهران في السرير، طويلان طول سجن مؤبد، وساقان مكسورتان تلفّهما الجبيرة التي أشدُّ ما يحتاج إليها قلبي المفطور... ولمّا قلتُ جاء الفرج، لعلّ الكرسي المتحرّك يخفّف الآه ويبدّل مشهد العجز إلى قدرةٍ، زاد إحساسي بقيدِ الشّوق. لم أعُدْ إلّا رماداً لا ينفع الثورة في شيء.

انتقلت إلى مشفى في أنقرة، حيث لم أبقَ وحيداً أبداً. كان شادي، منذر، طارق، سهيل، مسعود، ماريشال شقيق طراد وغيرهم يتناوبون على التواجد معي في الغرفة. أمّا رائد فكان يلازمني طول الوقت، صامداً على الكرسي المحاذي لسريري رافضاً أن ينام نومةً هانئة ليتقوّى بها من التعب. كان طعامي من كفّه، وغسلُ وجهي كل صباحٍ... يحملني إلى الحمّام ويواسيني عند تبديل الضمادات حتى ألتهي عن الألم. تسع عمليات جراحية أجريت لي، منها ما هو في قدمي ومنها ما هو في بطني. وفي الأجواء كان يحوم خطر إصابتي بالفشل الكلوي؛ إذ توقفت كليةٌ من كليتيّ، فيما تراجع أداء الثانية. ومع كلّ الأوجاع، وعلى الرغم من الحضور الزّخم لأشقّائي وأصدقائي، كان غياب خالد واضحاً حارقاً مثلَ عين الشمس.

# لقاء الشهيد

في هذه الأثناء، كانت حلب قد حوصرت بالكامل. حتى طريق كاستلو الذي سلكته للنجاة، والذي كان المعين ـ على الرغم من خطورته ـ لإدخال الأدوية والأطعمة وإخراج الجرحى، تمت السيطرة عليه. مئات الآلاف من المدنيين حوصروا في المدينة التي أُخرجتُ منها كرهاً لا طوعاً... والمجازر المروعة بحق المدنيين لم تزل تحصل كما لو أنّها معزوفة يطرب لها المجرمون. لم تكن يوماً وتيرة القصف تحتسب بالأيام، فالأهداف كثيرة والإصابات والخسائر تكثر وتكبر كل ثانية... وأنا، إبان كل ذلك، حبيس سرير في مشفى... دمّرت المشافي وأحياء سكنية أبيدت بأكملها بغاز الكلور السام، فمن لم يمت قتلاً مات اختناقاً... والغصة في حنجرتي تزيد.

كانت الظروف المجنونة بحاجة إلى حلّ مجنون، قلت لنفسي. لا بد من حلّ يخرجني مما أنا فيه... ولم يكن ليبرد جراحي أكثر من العودة إلى سوريا، ولو على كرسيّي المدولب، ولا سيما أن معركة لفك الحصار عن حلب قد بدأت من خارجها. كنت آمل في نفسي أن أشارك الثوّار صبرهم وظفرهم وأزور قبر خالد للمرة الأولى بعد لقائنا الأخير. وبعد استشارة الطبيب الذي نصحني بعدم

المجازفة، ومحاولات أهلي وأصدقائي لمنعي، وحده رائد فهم حاجتي ولبّاها فور اقتراحي للفكرة.

انطلقتُ وإياه إلى الحدود ومن هناك إلى كفرنبل حيث استقبلنا حمود بدموع حارة وعناق طويل، كما لو أنّه يوم العزاء الأول. وفي ليلتنا الأولى هناك، مرّت طائرة حربية من فوقنا مخترقة جدار الصوت ما أيقظني مذعوراً. ولوهلة، نسيت أنني مصاب وحاولت الوقوف على قدمي لتفادي أي ضربة جوية محتملة، ولمّا لم أستطع حملني رائد وحمود إلى مكان أقل خطراً حيث نمنا حتى الصباح. وما أصعبه وما أجمله من صباح زرتُ فيه قبر أخٍ لم أتخيل يوماً أن يفرقني عنه شيء. كلّمته من على كرسيي، حدثته لأكثر من ساعتين، وبّخته، ناجيته، ناشدته... كان غيابه أثقل مزحةٍ؛ مزحة فتيّة لم تينع بعد... أخبرته أن الملايين عرفوه، وأن الأغراب بكوا عليه قبل الأصحاب، وأنّ كلّ صاحب نخوة وقضية قد نعاه. قلت له إنّ الكثيرين لم يفعلوا في أعمارهم المديدة قلةً مما فعل في ربيعه، وكنتُ كلما حدثته أشعر به ينصت ويعي ويفهم...

* * *

## ٨ آب/ أغسطس ٢٠١٦ ـ ضريح الشهيد خالد

*روحك معلقة فيني يا خالد، وين ما رحنا ووين ما جينا... انت أبدا ما متت وما رح تموت،... قدرت توصل وانت عمرك عشرين سنة للشي اللي عجز عنه الملايين... قدرت توصل لقمّة المجد يا خالد. كان عندك هدف وواضح وصريح وقدرت توصله... ضحكتك كانت تعطي فرح وسعادة لكل الناس الموجودة حوالينا.. ورح تضل هيك، ضحكتك النبراس اللي منمشي عليه... تأكد انه اللي قتلك ما رح يرتاح أبداً.. قتلك لأنه كان مزعوج من*

*الشغل اللي عم نشتغله.. بوعدك رح يبقى مزعوج.. رح موته بشغلنا، وطالما روحك معي، شغلنا سوا..*

رغم كل شي رح اضل أضحك.. بكون خاين اذا تركت الطريق اللي مشينا عليه..

# رحلة العلاج وداء البعد

بعد زيارتي لخالد رحمه الله، توجهتُ برفقة منذر ورائد إلى جبهات حلب؛ حيث تجري معارك فك الحصار عن المدينة. حاولنا أن نصل إلى نقطة الصفر، فأنزلني رائد ومنذر ووضعاني على كرسيي، ثم نسّقنا لقاء مع أحد القادة العسكريين وأجريته كما يجب. كان رائد يحاول قدر المستطاع ألا يشعرني بأي نقص، فيحمل الكاميرا بدلاً من خالد على الرغم من إصابته السابقة وكبر سنّه، ثمّ يساعدني في المونتاج...

انتصر الثوار في معركتهم وجاء انتصارهم بلسماً خفف من وطأة المصيبة، فيما كان رائد يقاتل على جبهة أخرى ليعوّض النقص على الرغم من ألمه وحزنه للمصاب. قفَلنا عائدين إلى تركيا لاستكمال علاجي بعد أربعة أيام قضيناها في سوريا، كانت كفيلة بتخفيف آلامي وإزاحة قليل من همي. ولو أن الأمر بدا متناقضاً، انتعاشي بهواء الوطن، أنا الذي لطالما استهزأت بمن يتغنى بتراب الوطن وهواه. لكن الأمر يبدو جلياً حين تصبح أنت المهجّر قسراً، يصبح حضن الوطن رفاهية وتغدو الغربة صياماً عن لقيا المحبوب، كيف وإن زيد إلى كل ذاك دماء تروي نبتة الحرية يوماً إثر يوم!

في *أنقرة* بدأت رحلة العلاج من جديد، حيث استكملت

عمليات قدمي وأتبعتها بعلاج طبيعي لترميم العظام لعلها تعود صالحة للاستخدام. ثم استأجرت بيتاً كان مسكني في الأيام التالية، وكانت حالتي النفسية من سيئ إلى أسوأ. كنت لا أفتأ أذكّر نفسي بوقعتي الأولى وكيف أنني لن أجد من يعينني على غياب خالد بعد أن كان الجمالَ المتبقّي في عالمي بعد جحيم فقدي لطراد. كان الحلُّ الوحيد هو أن ألحق بهما.

لم أرَ شيئاً غير الرحيل.

أليس يلفّنا؟ أو من ترك بيته الأول وحارته الأولى، وحالت بينه وبين عائلته الحدود، وبينه وبين أصدقائه الشطآن، وبينه وبين أحلامه الظروف... أو من أبعدت شظيةٌ روحه عن جسده، ألم يفتك بكل هؤلاء الرحيل؟ لماذا لا أرحل أيضاً؟ لكنني لم أعُد أحتمل المزيد من الألم. أحتاج إلى طريقة لإنهاء كل شيء بصمت، من دون أيّ دويّ، ولا نشيج، ولا أنين. نومٌ مؤبّد لا يترك توقيعه على روحي كما فعلت الإصابات من قبل. لم يكن القفز من سطح البناء قابلاً للتنفيذ؛ حيث إن قدماي لن تسعفاني للوصول... فكرت بالسمّ، وبسيارة تدهسني...

قدّرتُ، لما لبست حذائي الضخم أوّل ما أمكنني أن أسير بعكازات، أن الوقت قد حان. غافلت رائداً وأخي منذراً، وخرجت إلى الحديقة. وقفت على جانب الطريق السريع وقررت أنّها اللحظة الحاسمة. وبينما أراقب السيارة التي سأرمي نفسي أمامها تزاحمت كل الصور في رأسي... كل الأشلاء وكل الدمار والصرخات والليالي القاتمات... تذكرت وعدي لخالد، والشباب الذين أحب... تذكرت الليلة التي تعاهدنا فيها ألا يستسلم أحدنا حتى تصل الثورة ببلدنا إلى حيث يجب، أو نُسلّم أرواحنا... تذكرت

تجديدنا العهد كلما سنحت الفرصة... ولم يكن لي أن أختار لروحي النهاية.

عدتُ وعندي إصرار أكبر لإكمال المسيرة، وكأنني ولدت من جديد. يوماً بعد يوم، بالاستمرار في تلقّي العلاج الفيزيائي صرتُ أسير بشكل أفضل، ولو أنّ قلبي ما زال يعرج. كان رائد موكلاً بمهمة جبر ذاك الكسر، وعلى قدر ما كان ذلك متعباً له، كان يبذل قصارى جهده كي نصل إلى أفضل النتائج في أقرب وقت. كان يخرج معي للتصوير على الرغم من تعبه، ويتحامل على نفسه على الرغم من أن صحته لا تسمح له... فجسده المطرز بالرصاص وجهازه التنفسي الذي يناضل إثر إصابة في محاولة لاغتياله من قبل داعش عام ٢٠١٣ كانا عائقين، لكنه تخطاهما مكابراً علّني أتناسى فأمضي قدماً. شاركني التغطية الإعلامية مراراً إلى أن أصبح لي شركاء جدد في مهمّتي الأولى والأخيرة، توثيق الأحداث إلى أن تؤتي الثورة أُكُلها. صار عندي خوف جديد، وعدتُ إلى نقطة الصفر، أقنع نفسي أن كل الشخوص مجرد معرفةٍ عابرة، لكنه الخوف من الفقد من جديد.

# بلا أيدٍ

## شباط/ فبراير ٢٠١٧

*«جنون روسي ما طبيعي بمعرة النعمان!*

*ما عم نقدر نعد الغارات الروسية اللي عم تنزل ع المدينة، بيوت شاعلة وبيوت تهدمت،*

*شهداء متفحمين وشهداء تحت الأنقاض*

*والطيران عم يستهدف مكان الضربات السابقة!*

*وشي ما بنوصف! والله!»*

* * *

*«خليط من مشاعر العجز والتعب والقرف رح يقتلنا كلنا!*

*عجز عن إنو نعمل أي شي حقيقي للغوطة.. يخفف معاناة الناس فيها، يصبرن يطمنن يعمل أي شي إلهم!*

*قرف لا محدود من قادة الفصائل لا سيما فصائل الشمال اللي ما عاد استحوا ونازلين خبط ببعض والغوطة عم تندبح أشكال وألوان..*

*ما بس الغوطة عم تندبح، نحن كمان البعاد عنها عم نندبح أكتر، عم ننزف مع كل قطرة دم عم تنزل من طفل فيها،*

*عم تصيح أرواحنا مع كل صرخة خوف وفزع لأم من أمهاتنا هناك . .*

*عم نموت مع كل شهيد فيها ونرجع نعيش لنموت بعجزنا وقهرنا مرة تانية!»*

* * *

## تشرين الأول/ أكتوبر ٢٠١٧

كلما وصلت إلى مرحلة شعرت بها أن إنسانيتي فُقدت وأني «تَمْسَحْت» ولم يعد يؤثر بي أي شيء مهما كان وأني وصلت إلى مرحلة اللاجدوى من نقل الصورة إلى العالم يأتي موقف ليحيي إنسانيتي المذبوحة على أعتاب ٧ سنوات من الثورة!

البارحة في مجزرة سوق الخضار في معرة النعمان وبينما كنت أمشي بين الأشلاء وأشم رائحة الدماء في كل مكان رأيت يداً مقطوعة فوق صندوق من التفاح الأخضر!

فكّرت طويلاً وأنا أنظر إليها . . هل هي يد البائع؟ أم تراها يد أبٍ كان يريد أن يشتري تفاحاً لأطفالٍ طال بهم انتظار أبيهم الذي لن يأتي

حرّكت بي هذه اليد المقطوعة بقايا إنسانيتي التائهة على أبواب التاريخ

بكيت وأحسست أن يدي هي المقطوعة غدراً وقهراً وأننا بتنا جميعاً بلا أيدي تستطيع إيصال التفاح إلى أطفال أنهكهم القصف وأتعبتهم المجازر

هي يد العالم وقد قطعت عن إيقاف المذبحة المستمرة في سوريا .

# تجديد العهد

## ١٥ آذار/ مارس ٢٠١٨

في الذكرى السابعة للثورة:

إلى بشار الأسد وكل طغاة العالم.

إلى بوتين وحسن نصر الله وكل الميليشيات التي تحارب معهم.

ها نحن اليوم نقف أمامكم، لم نهزم، ولن نستسلم.

نعدُّ عاماً ثامناً من زمن الثورات الذي لا نهاية له، ونبدأ عمراً جديداً نُفنيه قرب مدننا المدمرة، نصنع بدمائنا التاريخ، ونسجل الشهداء على قوائم الخلود.

إلى كل من يهمه الأمر، نحن اليوم نقبض على الثورة كجمرة من نار، نسمي بلادنا باسمها كي تظل خالدة، كي تتمسك أرضنا بالحياة.

نقاوم على الرغم من أجسادنا المثخنة بالجراح، على الرغم من معراج أرواحنا نحو السماء.

نقاوم ونحن على يقين بأنه في كل يوم ستتجدد ذكرى المجزرة وسنحفظ صور شهداء الحق الذين اصطفوا جماعة على درب الجنة.

نقاوم وليس عندنا شك في أنه لا عدل على هذه الأرض سوى معارك الثوار وأسلحتهم وتكبيراتهم حتى آخر قطرة دم.

في ذكرى الثورة وقد أظلم ليلنا، وفطرت قلوبنا، وعلى الرغم من تعثرنا بدموعنا، وشقاء أمهاتنا ونسائنا وأطفالنا،

في ذكرى الثورة، وقد غلبنا العجز، وأعيانا فقد الأحبة،

لا نملك إلا أن نختارها مرة ثانية، وثالثة، ثم مرة أبدية لا نفرط فيها، ولا نتخلى عنها... نختارها منهجاً وحياة وحرباً ومبادئ نعيش بها ولها، ونموت في سبيلها.

في ذكرى الثورة، سنبقى أوفياء للصرخة الأولى، وسنبقى ثواراً نهتف حتى مطلع الفجر،

يلا إرحل يا بشار.

* * *

# فكرة مجنونة

إنّ طريق كلّ امرىء مرسومة، ونضاله مشبوك بساعده. ومهما عصف الحزن والحنين، ومهما قاسينا من الفقد والفراق، تبقى الذكريات الحلوة إشراقةً للتقوّي على مشقات الدرب...

رهف التي أزهقت روحَها الحربُ أورثت أختاً جديدة لها صفاتها، ولو أنّ إخوتها يلاعبونها الآن في حدائق تركيا ريثما يأمنون العودة إلى أحضان الوطن.

كلّ وردةٍ ذبُلتْ، تفتّحت بدلها اثنتان. وكلّ برعمٍ يبّسه القحط، تفتّح عشراً بفِعلِ الندى. عدنا من جديد إلى مكتبنا الحَنون في سوريا الأم، وعاد رائد يخرج معي لتغطية الأحداث. أصبحت المجازر خبزنا اليومي، نستغرب إن لم نشهد إحداها بين الفينة والأخرى. لم يكن العمل مناسباً لرائد أبداً، ولكنه كان يكابر على جراحه من أجل غيره ويعض على وضعه الصحي دونما أي تأفف، إلى أن اقترح لي شريكين جديدين؛ محمد الضاهر الذي يدير المركز الإعلامي في مدينة معرة النعمان، وعلي دندوش الذي انضم إلى السكن معنا في المكتب بعد أن كان يعمل في راديو فرش. وبالفعل، كان الصديقان نِعم الأخوان والشريكان، شجاعان قويّان في المعارك، رحيمان عليّ رؤوفان بقلبي. ومع الوقت صار يتولّد لديّ هاجس الفقد من

جديد... وصرت أحار أأقلق على شريكيَّ أم على رائد، فأنام وأستيقظ على الكابوس ذاته بين كفرنبل ومعرة النعمان. وفي المعرة حوّلنا منزل صديقنا أبي عرب إلى غرفة عمليات إعلامية أجتمع فيها مع حسام ومعاذ وعزو وضاهر، ننطلق منها لتغطية الأحداث الدائرة في الشمال المحرر. أما في كفرنبل فكان معي رائد وحمود وعبد الله وعليّ وشلة طيبة من أقرباء رائد وأصدقائه القدامى، حيث السهرات الوادعة من بعد التعب المضني في العمل المدني.

عادت الحياة لتبتسم من جديد رويداً رويداً، وكان جلّ وقتي مسخّراً للثورة التي أحببت أولاً وآخراً، وفي سبيلها يهون المصاب. ومع ذلك، كانت تصلنا تهديدات من هنا وهناك، تارة من قِبل النظام يلوّح لنا باجتياح إدلب التي تحتضن ملايين السوريين المعارضين له، وطوراً من داعش التي تؤكد أنها ستقتلني ورائداً وتعلق رأسينا على دوّار كفرنبل. لكنّ أكثر التهديدات جدّية كانت تلك التي مصدرها جبهة النصرة؛ حيث أوضحوا أنهم هذه المرة لن يكتفوا باعتقالنا، بل سيكون قتلُنا مباشرةً. أما التهمة الوحيدة فهي العمل المدني وخدمة المجتمع في مقابل كل الدمار والتشريد والترويع. ومع زيادة التهديدات أصبحنا نغير أماكننا بشكل دوريّ خوفاً من اقتحام مفاجئ، وتعايشنا مع الواقع الجديد. لكنّ رائداً كان يخطط لشيء مختلف تماماً، حيث فاجأني بطرحه فكرة زواجي، وأنا الملوّع قلبُه من الفقد، كيف أفكّر برهن مصير حياةٍ أخرى بي؟! هل أكون عاقلاً إذا خطر لي، لو عرَضاً، هذا الخاطر؟

* * *

# حالة... غير حرجة!

## ٢٠ حزيران/ يونيو ٢٠١٨

كانت فكرة الزواج بعيدةً عن ذهني. لم أكن قد وجدت تلك التي ستبلسم جراح النكبات الأولى بعد، ولم أكن متأكّداً من مناسبة وضعي، كان قلبي يحدّثني أنه مات، وأن لا مكان للرومانسية الساذجة في زمن الحروب. من ذي التي ستقاسم الثورةَ قلبي؟ وكيف لها أن تشارك حياتها مع شبح تكاد الحرب أن تزهق روحه مع كل موجز أخبار؟ ظلَّ يتناول الموتَ مع كل وجبة طعام ويشم رائحته مع كل سيجارة؟ لكنّ رائداً أصرّ. قال إنني تأخرت. قالها بإصرار وليّ الأمر، وحنوّ الشقيق ولهفة الرفيق، ثمّ أعملَ نفسه في البحث عن العروس المنتظرة. أما أنا، فراوغتُ وأجّلتُ وسوّفت... لم أكن قد فتحت أبواب قلبي بعد... بل قل أسواره. وكلما جاء يحدثني بالزواج هززت رأسي نافياً أو متهرّباً من الجواب... ولم يطل به الزمن إذ جاء بالخبر. صوتٌ من أصوات الثورة الطاهرة التي لا تلد إلا أبطالاً ومناضلين. «لن تخسرَ شيئاً، تُلقي نظرة لستَ مجبراً على غيرها»... أخبرني عنها بلهفةٍ، كما لو أنها غاردينيا العمر التي كُتب لها أن تنبت تماماً في غشاء القلب. ولكنني لا أريد أن أراها! ما النفع من الرؤية إن كنت لا أرغب في الزواج؟ لستُ من هواة التمثيل

ولن أرضخ له مضيعةً للوقت. ولكنّه لم يبرح مكانه حتى ساقني إليها كرهاً.

لمّا التقيت بها لم تكن أقلّ نقاءً ولا أصفى حديثاً ولا أعذب لحناً ممّا ذكر، وقلبي الذي كان معسكراً، أضحى في هنيهة حديقة! خلال ربع ساعة، لم أرَ غيرها بين الجمع، ولما التقت عيوننا بدَت الكلمات قاصرة... انصدم رائد لما قلتُ له إنني موافق مبدئياً. لم يكن في سمائي غيمٌ حتى تمطر، لكن منذ متى يستأذن المطر السماء؟

بدأ الحديث يجر حديثاً، والجلسة تتبعها جلسة. صرنا نتشارك التفاصيل ونستكشف ذواتنا كمرآتين متقابلتين. كنا كلما أوغلنا في الحديث زاد بريق عينينا، وتهافتت خفقات قلبينا كقبضة يدٍ تهرول باتجاه حلم! كانت الخطوة التالية تماماً عقداً عرفياً على مرأى من الناس ينبئهم بنيّتنا بالارتباط. تمّ الإعداد على حين غرّة لـ «قراءة الفاتحة» بنية التوفيق. لم يكن أحد من أهلي حاضراً لسرعة تمام الأمر... لم يتوقع أحد أن تسير الأمور في ذلك الاتجاه. ولكنّ رائداً وحموداً أتقنا دور العُزوةِ فرتّبا لكل شيء من أدقّ التفاصيل إلى أكبرها وأهمّها. على جناح السرعة اشترينا خاتمَي الخطوبة، واستلزم الأمر جاهةً من أهالي كفرنبل لطلب العروس من أهلها، فكان أبناء عم رائد، على رأسهم فاتح الشيخ، جمعاً يُرفع الرأس به ويفخر القلب.

بعد ذلك ازدادت زياراتي إلى عروسي. لم تعد تكفينا ساعات النهار لننهي حديثنا، وصارت تضيق بنا رحاب الأرض شوقاً. بات السكوت مقيتاً، وصار افتراقنا يزيد وطأة الليل ثقلاً، واللقاء يُصيّر الصبر سكّراً... وأصبح لزاماً إتمام العقد العرفي بآخر شرعي يتوّج علاقتنا بقدسية الرباط الزوجي. في يوم «كتب الكتاب» المنتظر،

حضرت العائلة الكبيرة البهية. فكان لكلٍّ جميلٍ مرسالٌ، ولكلٍّ ريحانة سكنت في ذاكرتي عبقٌ أخّاذ. أمّي وأخواتي وإخوتي دخلوا إلى سوريا عائدين من تركيا، أمّ خالد ـ أمي الثانية ـ حضرت مزغردةً، أخ طراد ـ موفّق ـ فرحاً، والثورةُ التي لا تستطيع إلا أن تضاعف الحبّ وتزيده، كلّ ذلك وأكثر احتفاءً بالعريس و«الرفاه» ودعوةً بالبنات والبنين. لم تغب بصمات رائد وحمود عن الساحة، فكانا يهرعان من ناحية إلى أخرى لتأمين وترتيب كل المستلزمات بدءاً من الضيافة وصولاً إلى دعوة الشيخ لعقد القران وغير ذلك مما يستلزم الحدث. بين غمضة عين وأخرى، كانت يدي تشبك بيد عمي،

«زوجتك ابنتي»، على مرأى من أعين الناس وعلى وقع زغاريد النسوة التي لا تطفئها الحرب مهما حاولت دفنها بالتراب.

لا أعظم من الأبوة في موقف كهذا. مهجة القلب، فلذة الكبد ونوارة المنزل، غدت عروساً بعد أن كانت بالأمس رضيعة. وها قد جاء من يحفظ الأمانة، ويصون الودّ، فكأنّما يقول الأب: خذها، قلبي، وإياكَ إياكَ دمعةً من عينها أن تنهمر. أحسست بقلبي يطير إلى أن حطّت المسؤولية أثقالها على كتفيّ. منذ تلك اللحظة تماماً، لم تعد حياتي حكراً لي. صارت رفاه لي سَكَناً، وصرتُ لها سنداً، وصار الهوى غلّاباً.

لم يقف عمّي على الحياد حين اندلعت الثورة، ولعل ذلك ما جعل اشتباك أيدينا دافئاً مطمئناً. وأمام محاولات الزواج للكثيرين من رفاق الثورة، التي جوبهت بالرفض لكونهم ناشطين غير مستقرين، كان عقد قراني تمكيناً لفكرة الثورة وزرعاً لبذرة جديدة في أرض خصبة لن تلد إلا حرية مهما كان الثمن. خرج عمي أوائل

الثورة مصوراً الكثير من الفيديوهات الساخنة إلى أن تعرض لحروق خطيرة في غارة جوية على المكان الذي كان متواجداً فيه، نجا منها بأعجوبة. أما رفاه فكان لها نصيبها من الخروج في المظاهرات النسائية والهتاف ضد النظام الظالم. لم يكن للدبكة مكان في فرحنا؛ إذ إنه لا فرح كاملاً في ظل المجازر اليومية التي تحصل بحق السوريين لمجرد مطالبتهم بحقهم في الحرية.

استأجرت بعد عقد القران منزلاً صغيراً بالقرب من مقر الراديو، وجهزته ليحتضن أسرتنا الصغيرة لاحقاً. ازدادت زياراتي وصرنا نخرج للترويح عن أنفسنا بعد عقد القران، ريثما نقيم حفل الزفاف الذي لم يحضره أهلي بسبب عدم استحصالهم على تصريح بالدخول إلى سوريا. زفّني رائد وأخو طراد، فيما انتظرتنا أم خالد إلى جانب العروس. كانت صور الأحبة لا تفارق مخيلتي، على الرغم من سعي الكثيرين لإتمام الفرح كأن لا أحد ناقص.

* * *

# سهمان في القلب

## تشرين الثاني/ نوفمبر ٢٠١٨

بعد زواجي بيومين استتبعت عملي في المكتب الإعلامي وما يقتضيه من سهر مكثّف، لكنّ رائداً اقترح عليّ السفر إلى تركيا لزيارة أهلي وقضاء بضعة أيام معهم. وبالفعل كان ما أراد. توجهت وزوجتي من فورنا إلى تركيا، والتقينا أهلي بعد غياب طال. لم تكن الدنيا لتسع فرحتهم، فبعد مواسم القهر جاء الفرج، وأخيراً كحّلوا أعينهم برؤيتي بصحبة عروسي، لكنني مع ذلك، لم أهدأ، كنت أنجز بعض الأعمال المتعلقة بعملنا المدني هناك وأبقى على تواصل يومي للتنسيق مع رائد وحمود والبقية. وكان أكثر ما يرددونه أن تعال، اشتقنا إليك. وعلى الرغم من سعادتي العارمة بلقائي أهلي، إلا أنني لم أكن أكثر من سمكة أخرجت من البحر إلى صندوق أسماك، أتمنى بشدة العودة إلى فضائي الرحب. ولعل ذلك يعود إلى مشاركتي إياهم تفاصيل أيام كثيرة، تخللتها الضحكات والنكبات والنهفات والمآسي.

ذات يوم، كنت قد تركت هاتفي المحمول في المنزل وخرجت لإنجاز بعض الأعمال، وعندما رجعت منتصف نهار الجمعة[1]

---

(١) ٢٣ ـ ١١ ـ ٢٠١٨.

وأمسكت بالهاتف وإذ بعشرات الاتصالات الفائتة. ومع أنّني كنت دائماً على أهبة الاستعداد للمصائب، إلا أنها غالباً ما كانت تباغتني بحجمها. تسارعت نبضات قلبي، وتنفست الصعداء استقبالاً للمجهول، ودونما أي مقدمات، أُخبرت أن رائداً وحموداً قد تعرضا لمحاولة اغتيال وهما يرقدان في المشفى، استشهد حمود، أما رائد فوضعه حرج. كانت تصل الصور تباعاً وتضيق على أنفاسي أكثر فأكثر، لم تحملني ركبتايَ على وقع الخبر، لم أكن جاهزاً لذلك بعد. سيارة «كيا ريو بيضاء» كانت تراقب رائداً في أيامه الأخيرة، إلى أن لحقت سيارة فان نهار الجمعة بالسيارة التي يستقلّها رائد وحمود وعلي دندوش... وعند النقطة المنتظرة نزل عدة أشخاص من الفان وأفرغوا رصاصاتهم وغلّهم في جسدي رائد وحمود.

*تحديث للخبر: رائد وحمود قد رحلا شهيدين.*

التفاصيل: لا تفاصيل أكثر ولا كلمات قادرة على الرثاء ولا عقل يستطيع فهم ما حدث وما يحدث.

رحل رائد وحمود وأخذا معهما بقية الأمل من دنياي!

قُتل أخواي بلا ذنب سوى أنهما من أبناء الثورة، اغتالهما جبناء لا يملكون حتى شجاعة الكشف عن وجوههم!

هذا هو قدر الأبطال دائماً في ثورتنا، أن يغتالَهم الأنذال!

ذهبا إلى حيث خالد وطراد وبقية الشهداء...

تُرى كيف كان لقاؤهم الأول؟! كيف استقبلهم خالد؟ على من عرّفهم من الشهداء؟! هل هما مرتاحان الآن؟! بماذا يفكران؟ هل تحدّثا عني بشيء؟ عن كفرنبل؟ عن المجرمين الذين قتلوهما؟!

هل عرّفهم خالد على طراد؟! هل حدّثا طراد وخالد عني؟!

من دون أن أشعر، هممت بالاتصال برائد لأسأله ماذا أفعل. من يعيدني إلى الطريق الآن وقد غاب الدليل والبوصلة؟ من لي للمشورة والنُّصح والمواساة؟

هرعت ألحق بهما قبل أن يوريا الثرى، أطبع على جبهتيهما قبلتي الوادع، لكن تعقيدات السفر حالت دون وصولي في الموعد المحدد. وهكذا بعد أن فوّتت حضور تشييع طراد في لبنان، وحال كسر قدميّ من تواجدي في كفرنبل لتشييع خالد، رحل الأخيران دونما وصية أو وداع. وكأنما نقطة الأمل التي أوردتها أولاً، جفّت قبل أن أصل إلى الختام. وكأنّ نفق الصعاب قد طال، ودقّة الحياة اشتدّ عليّ سوْقُها... وكأنّ طراد سلمني لخالد، الذي سلمني بدوره لرائد... ولم يشأ الأخير أن يذهب قبل أن يختار لي شريكة تواجه معي ما تبقّى من صعاب قبل أن أبلغ المنيّة؛ رفاه.

# سأعود

لمّا استطعت التوجه إلى سوريا، كان باستقبالي عبد الله على الحدود. تلك الحدود التي أَلِفَت وجوه الشلة أصبحت تفتقدهم واحداً تلو الآخر. ضممته كما لو أنه جميعهم، رائد وحمود وهو. بكينا معاً وعلا نشيجنا قبل أن نلتفت إلى الصواب: لن يعيد الندب ميتاً... لا فائدة إلا بترتيب أمور العمل المدني الذي كان يديره رائد حتى لا يغيب ذكره الطّيّب؛ حيث كان لكل فكرةٍ يجهز جيشاً من الشباب همّه الوطن والثورة... لم يكن الأمر سهلاً، لكنّ أمور العمل تيسّرت شيئاً فشيئاً، وعدتُ إلى الغرفة التي غاب عنها طيف رائد وخالد وحمود... وكأنّنا عدنا معاً، عادت التهديدات مع عودتي. كنت أحاول قدر المستطاع الحدّ من تحركاتي، لكنني اضطررت يوماً إلى إيصال زوجتي إلى الطبيبة لإجهاضها توأماً من الأجنة نتيجة الأحداث الصعبة التي ألمّت بنا. وبينما أنا متوجه إلى هناك، لحقت بنا سيارة من نوع «كيا ريو بيضاء»، ذاتها التي طاردت رائداً وحموداً. تخلصت من السيارة بصعوبة، لكنني علمت أنني الهدف الآتي ولا بد... مساءً، عادت السيارة البيضاء مع سيارة فان إلى الحي الذي أسكنه، فأخبرت من أثق بهم من أصدقائي الذين حاولوا تأمين الحماية لي. أصبحت حياتي وحياة زوجتي على

المحك، فاقترح الجميع خروجنا إلى تركيا. وكأنني كلما عدتُ نُبِذتُ... تهجير جديد بنكهة أفظع... حرمان من جنينين ومن كفرنبل ومن رائحة الوطن، ثلاثي أرغم دموعي على أن تفيض إذ أعبر الحدود. ولكنّ القلب تعبٌ، والعقل أرِق، والبال مشغول... عصف بي الحزن وألمّ بي الاكتئاب، ولم أدرِ أأخاف على زوجتي أم على العمل الذي تركته والأصدقاء الذين يرحلون تباعاً... لم أستطع أن أبقى مكتوف الأيدي... فأنا إن لم تكن لي رجلان مستعدّ أن أحبو حتى أعود. إن الموت أسهل ما يمكن أن يواجه الإنسان في ظروف كهذه... لذلك قررت أن أعود. ولو أُبعِدتُ ألف مرة سأعود، حتى أنجز الوعد أو ينقضي العهد...

# رهاب الفقد

في تركيا، قضيت أياماً مرت بطيئة جداً، محاطاً بوجوه أهلي، وملفوفاً بالأمان والعيش الرغيد. لكنّ شيئاً ما كان يحزّ رقبتي، كما لو أنه يضيّق الخناق عليّ؛ وعدي لطراد، عهدي لخالد، وفائي لرائد وحمود حبالٌ تشدّني بعنف نحو الوطن.

طراد، خالد، حمود، رائد والثورة! الخماسية التي أنهكتني وعلى إثرها خارت قواي... وإن كنت ذكرتُ الأشخاص قبل الثورة، فلأنّها النّفَس الوحيد المتبقّي، والذي لأجله هانت وتهون التضحيات.

قد كنت قبلهم في زهوة شبابي، أبني حلمي لبنة بعد أخرى... وكلما استقامت الحجارة جداراً إذ به يقصف وينهار. وفي كلّ ليلة، حين نأوي إلى الفراش، آمل أنّ الغد يحمل البشرى بالانتهاء... وأنّنا يوماً ما، مهما كان بعيداً، سوف ننظر إلى الوراء ونحمد الله على السّعي؛ حيث إن الظن بالله لا يخيب.

رحلوا، ولمّا يكتمل البناء! مشوار الثورة الطويل الذي تعاهدنا على المضيّ قدُماً به، كان يقتضي أن يُكمِلَ كلٌّ منّا في الاتجاه

ذاته... ولو أنّها الرايةُ ذاتها، لكنّ الريح أخذت أطرافها حيث شاءت، ولم يكن لنا إلا أن ننصاع.

ولكن الجدار سيُبنى، والبناء سيرتفع، لأنّ لِبناته مرويّة بالدماء، عطشى للتضحيات، تبنيه أيادٍ بيضاء وأرواحٌ نقيّة لا تكلّ ولا تنفد أبداً.

# فصلٌ جديد

حدثت نفسي مجدداً، وحديث النفس لا ينتهي. مهما كان الحال سيئاً لن يستطيعوا أكثر من قتلي! ها أنا أموت في الغربة بصمت ألف مرة. أدور حول نفسي، حتى أكاد أهذي، وقد أصبح لي في ديار الحق أحبة أكثر من أي وقت مضى. ما الذي أخشاه بعد الآن؟

عبرت الحدود باتجاه سوريا وقد عزمت هذه المرة ألا أغادرها إلا نحو السماء! كفاني الله ألم الفراق ومرارة البُعد!

عدتُ إلى عشّي الأول، قريباً من الراديو. من حيث لا ندري، أصبحت الطائرات مختلفةُ المصادر تأتي على شكل مجموعات كأن واحدة لا تكفي لتذيقنا مرارة المأساة. خمس عشرة طائرة تأتي معاً، تقصف كلٌّ منها أهدافها كما لو أنه حرقٌ ممنهج للمنطقة. بطبيعة الحال، كنت أخرج لتغطية المجازر التي لا تنتهي. وذات مرة، كان عليّ أن أخرج لإعداد تقرير عسكري وإجراء لقاء مع قائد جيش العزة جميل الصالح. كان الأمر مفاجئاً وسريعاً، لكنني قبل أن أنطلق، أخبرت رفاه بأن عليها وأهلَها إخلاء المنزل بأسرع ما يمكن والتوجه إلى خارج كفرنبل، لشعورٍ يخالجني بأن الوضع يزداد خطورة مع الوقت، خاصة بعد تنفيذ عدة غارات على مدى الأيام

الأخيرة في مناطق مجاورة للمنزل. كانت رفاه حاملاً للمرة الثانية والخوف صار خوفين، أورثني إياهما فقدُ طراد وخالد ومن بعدهما رائد وحمود. صار هاجسي الاطمئنان على رفاه ورفيقي الدرب ـ عبد الله التمساح ومحمد ضاهر. بعد نحو الأربعين دقيقة بعد إخلائهم المنزل الساعة الرابعة والنصف، قُصف المنزل بصواريخ محملة برؤوس عنقودية.

حين رجعت من ريف حماه إلى المنزل، كانت أجزاؤه القليلة مدمرة؛ الأبواب لم تعد في أماكنها، كأنما ضيف ثقيل شرّعها للغرباء وعاث بين جنبات المنزل الفساد. لم يطمئن قلبي المذعور إلا بعد أن لاحظتُ أن بعض الأغراض غير موجودة، غالب الظن أن رفاه وضّبتها وأخذتها معها. استقرَّت مع أهلها في المنطقة الحدودية مثلما فعل مليون ومئة ألف شخص آخر بسبب القصف، بينما استكملتُ وعودي لها بالحذر وعدم المجازفة بحياتي لعلي أعيش فأشهد ولادة طفلتنا.

إبان الحملة العسكرية هذه، كنا نسكن *كفرنبل* ثم انتقلنا إلى *حاس*، ومن بعدها إلى *معرة النعمان*. وبما أن كثرة الأخبار عن المجازر تميت القلوب، أصررت على إعداد تقرير عسكري يوضح صمود الثوار في مجابهة الأسد وروسيا والمعارك التي يخوضونها. صادف ذلك الأمر مع تحرير قرية *الحماميات* في ريف *حماه*، والتي لم يسبق لها أن تحررت؛ إذ كانت قلعة من قلاع النظام ذات موقع استراتيجي على إحدى التلال.

اتفقت مع محمد ضاهر وجميل وشابين من ريف حلب «عمار ورامي» مساءً أن ننطلق فجراً لقلة القصف في ذلك التوقيت حتى الثامنة صباحاً تقريباً. وفي الصباح، سرنا عابرين عدة نقاط خطرة في

*خان شيخون*، *مورك*، *كفرزيتا*، وصولاً إلى الحماميات عند الخامسة والنصف فجراً، حيث وجدنا آثار معركة قاسية. كانت الدبابات مدمرة والحفر الناتجة عن القذائف والغارات تنتشر هنا وهناك. التحذير الأول والأهم كان تجنب الطرقات الترابية لأنها مزروعة بالألغام. وبينما نأخذ حذرنا، ونختار بعناية الإطار المناسب للتصوير بحيث تظهر التلة وعناصر المعركة، وقبل أن ننزل من السيارة إذ بها تهتز على صوتِ انفجار قريب ناتج من غارة جوية على بعد خمسة أو ستة أمتار، ما جعلنا ننزل ونركض كلٌّ منا باتجاه. كانت تلك البداية؛ إذ تبع الغارة غارات أخرى صحِبها تحليق منخفض للطائرات بشكلٍ مرعب كأنّها ستحطّ على رؤوسنا. لم يكن ذلك وحده مصدر الصوت؛ فالقصف المدفعي كان نشيطاً وأربع أو خمس راجمات للصواريخ تفعل فعلها، محولة المنطقة إلى كتلة من نار تظللها سحابات من الدخان. لم أشعر بنفسي إلا وقد صرت منبطحاً على الأرض من دون أن آبه بالحجارة التي تركت تواقيعها على رجلاي. في خضم القصف، لم يكن بإمكاننا توثيق أي شيء؛ حيث كان كل واحد منا مرمياً في جهة، ولم يعد التصوير في بالي؛ إذ إن حيواتنا الآن أهم.

وأنا مرمي على الأرض، أنفاسي تختلط بغبار الأرض والسماء، وقلبي يخفق هلعاً على رفيقيّ، وعلى رفيقة الدرب التي تفصلني عنها معارك وساحات حرب فيما يقطن السلام في عينيها والأمل في أحشائها. لم يكن باليد حيلة للخروج زحفاً، لا إلى جانب بعض، ولا إلى السيارة. حتى الخطاب صار شبه مستحيل بعد الصراخ غير المجدي. ومن وسط كل ذلك الجنون، خلف ساتر ترابي صغير، لاحت لي خيالات حول طفلتنا الجنين، وصرت أدعو الله جاهداً أن يُمدّ بعمري حتى أراها نصب عيني.

في تلك الأثناء تهادت إلينا أصوات صراخ، اقتربت شيئاً فشيئاً حتى أيقنّا أنها تعود إلى مقاتلي الثوار. بين قرفصاء وزحف وهرولة، هرعنا نحوهم وإذا بهم أربعة مقاتلين مصابون، أحدهم إصابته خطيرة في رجليه ووجهه ملطخ بالدماء كما وجوه رفاقه. وإذا بهم هاربون من غارة جوية فانفجر فيهم لغم أرضي. سألناهم عن سيارة إخلاء، فأوضحوا أنها غير موجودة وطلبوا منا إسعافهم. أوقعنا الأمر في حيرة؛ إذ إن السيارة لا تكفينا كلنا، والوضع خطير وغير مؤتمن للتنقل أساساً، ومنهم جرحى بحاجة إلى العلاج.

اتفقنا أن نضع الجرحى في السيارة ويسوّي الباقون أمورهم كيفما كان في حواشيها بينما نصل إلى منطقة أقل خطورة. وبينما صعد الأوائل وننتظر الإعلاميين، غارت علينا غارة فاضطررنا إلى الانطلاق إلى كفرزيتا تاركين محمداً وجميلاً وعماراً ورامياً خلفنا. ووقعت بين أمرّين: الجرحى ورفاقي. وصلنا إلى البساتين بين المنطقتين، وكانت جليّة ألسنة النار وسحب الدخان تلتهم الأرض وتبتلع السماء. كان لساني يلهج بالدعاء للرفاق وعيناي تدمعان؛ إذ لا يحتمل القلب لا فقداً ولا فجعاً.

ونحن عائدون للنجدة، استنكروا علينا الرجوع. أوضحنا أننا سنحضر الشباب فقط، لكنهم أخبرونا أن السيارة مرصودة بالكورنيت[1] وأنها لن تنجو إن دخلت إلى المنطقة. استغربنا إذ إننا كنا هناك منذ برهة، ولم يحصل شيء، فأجابونا بأن نجاتنا أعجوبة لن تتكرر. احترنا بأنفسنا هل نفرح لنجاتنا أم نحزن للورطة التي وقعنا فيها. أجمعنا أخيراً أن نتوجه بالسيارة حتى نصل إلى بعد كيلومتر عن الحماميات ثم نترجّل بحثاً عن الأصدقاء. وهذا ما كان.

---

(١) صواريخ حرارية موجهة إلى الآليات.

ركنّا السيارة في أحد البساتين تحت الشجر وصرت أصيح من خلال قبضة اللاسلكي لمحمد ضاهر ولكنه لم يرد. وكلما زدت صرخة، وتأخر رده أكثر، استوطن في قلبي الرعب. المنطقة غارقة في النيران، والقصف لا يهدأ كأنه الغضب ينزل علينا من السماء ونحن نقترب.

بعد طول انتظار، واقترابنا رويداً رويداً، جاء الرد. «نحن بخير». «حتى الآن». أخبرتهم أننا لا نستطيع الاقتراب بالسيارة لذا نحن نسير إليهم، ولما قطعنا المسافة إليهم لم أصدق عيني، كانوا كلهم هناك على الرغم من الخطر المحدق، مرهقين كما نحن، على أكتافنا مهمة العودة سالمين من وكر القذائف هذا. وبينما نحمل أرواحنا بين أكفّنا، ونجتاز الوعر والشوك وصولاً إلى مورك، رنّ هاتفي المحمول إذ صادف توفر التغطية التركية لشبكة الهاتف. السابعة صباحاً، رفاه تتصل على غير عادتها. قلبها أنبأها بالمعركة فأيقظها باكراً لتطمئن. يبدو أنني لن أستطيع إخفاء تحركاتي عنها في المستقبل القريب. المستقبل الذي يحمل لنا بإذن الله أقداراً أجمل، ومشاريع وأفكاراً، وتحديات.

صوتٌ ما في داخلي يخبرني: حكايتك الآن تبدأ لتوها.

**بدأت في ٤ كانون الأول/ ديسمبر ٢٠١٦**
**تمّت في ٦ تشرين الأول/ أكتوبر ٢٠١٩**

يطول ليل المصاب وتتعثر أيامه وهي تمضي عنه بالآلام، فكيف لسنوات عجاف مررنا بها أن تكون ونحن نخرج من حالة حرجة فندخل أخرى؟!

لكننا على الطريق ما دام في النفْس نفَس.

كلّ نبضةٍ حزينة تتبعها نبضة أمل، وكل سكوت للقلب يتبعه ضجيجه طالما أنه حيّ... وقد جاءت من ملكت قلبي وبثَّت فيه الروح من جديد، فحوّلت ضجيج قلبي موسيقى، وسكونه عبادة... «رفاهي» الجميلة بجمال ثورتنا استطاعت أن تبثّ فيه إرادة الياسمين!

ولأنها حالات حرجة، ولأننا في ثورة شعب؛ فلن تنتهي، وليست هذه سوى زفرات من أثر الجراح التي أثخنتنا، وأتعبت الذاكرة، فتركتها تخرج عفويةً؛ وأعتذر أن بعضها خرج بالعامية، لكنني آثرت أن أتركها على حالها، كما خرجت من تحت الأنقاض، ولعل ما يتبعها يأتي في سلك أحسن وأجمل؛ على أملٍ من الله ألا تكون حالات حرجة!

رب أدم لي مهجة قلبي «رفاه»، لا تحرمني من عينيّ «ضاهر وتمساح»، واحفظ مسكني وملاذي «أهلي وأخوتي»، أنت خير مجيب للدعاء.

**هادي**

هادي العبد الله صحفي سوري من مواليد مدينة حمص ١٩٨٧ واكب أحداث الثورة السورية منذ بداية العام ٢٠١١ ووثق وشهد أهم أحداثها ،حاز على جائزتي حرية الصحافة من منظمة مراسلون بلا حدود وجائزة الصحافة الألمانية لعام ٢٠١٦ .

---

أقول الحياة لا تختصر بكلمات. لكنّها تُختصر، والكلمة فيها ما فيها من لوعةٍ واختزالٍ. أن تطوي المعاني والآلام والاضطرابات ونوبات الهلع بمجرّد نزعةٍ كتابيّة. أن تحفظ في سطر أو اثنين سيرةً عن الزوال. تقول، حتى لا يضيع شيء. لكنّك موقنٌ أنّ البوْح لن يطال كل زوايا الذاكرة. هناك أشياء نتناساها، وأخرى نريد لها أن تبقى دفينة كي لا تفتح جراحاً، وأخرى نتمنّى لو أنّها تذهب، هكذا من تلقاء نفسها، كأنّها لم تكن.